قضايا وأفكار

مقالات متنوّعة في شؤون الدِّين والحياة

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين (ع)
جمعية المبرات الخيرية
لبنان ـ حارة حريك



الطبعة الأولى

1433هـ ـ 2012م

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

جمعيّة المبرّات الخيريّة

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ ـ ٠١/٥٤٤٤٠٢

خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

Facebook:

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

قضايا وأفكار

مقالات متنوّعة في شؤون الدِّين والحياة

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الثقافي
جمعيّة المبرّات الخيريّة
لبنان ـ حارة حريك

المقدّمة

«قضايا وأفكار» مقالاتٌ متنوّعة، عميقةُ الفكرة، يتناولها تحليلاً ودراسةً بإيجازٍ سماحة الشّيخ علي غلوم ـ أحد علماء الكويت ـ وهذا الكتاب هو عبارةٌ عن مجموعةِ مقالات نشرها سماحته، في جريدة «الوطن» الكويتيّة اليوميّة، في فترات زمنيّةٍ متلاحقة، وهي تحمل قضايا اجتماعيّة وإنسانيّة وأخلاقيّة وتربويّة ونفسيّة، عالجها بروحٍ إسلاميّة واقعيّةٍ منفتحة، وهي قضايا يعيشها إنسان اليوم، وتشكّل في مجملها همّاً إنسانيّاً عامّاً، يعيش في عقل ومشاعر كلِّ منّا، يتعرّض لها يوميّاً، وتنعكس إمّا عليه شخصيّاً، أو على أحدٍ من معارفه، أو على المجتمع برمّته...

هي أفكارٌ لقضايا حيويّة، نُعيد نحن في المركز الإسلامي الثّقافي في جمعيّة المبرّات الخيريّة نشرَها من جديد، لتعُمَّ فائدتُها.

والله الموفّق والمسدّد

مدير المركز الإسلامي الثّقافيّ

شفيق محمّد الموسوي

جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ

نيسان ٢٠١٢ م

الانقلاب المفاجئ !

الانقلاب المفاجئ الذي قد يَحدُث في حياة البعض بحيث يتحوّل من خلاله الفرد من حالة الاستغراق في المعاصي والمجاهرة بالفسق وعدم التورّع عن ارتكاب أيّة فاحشة، إلى حالة من الاستغراق العميق في العبادة و(مظاهر) التديّن والتلبّس برداء الدّين وتبنّي مواجهة الآخرين تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل هذا الانقلاب العنيف ليس بالحالة المحمودة، وسرعان ما ستظهر الآثار السلبيّة المترتّبة عليه من خلال الأفكار أو الممارسات أو القرارات التي يتّخذها الشخص ذاته بعد عزوفه عن مسلكه الأول، إذ تتّسم عادة بالعنف والتطرّف والسطحيّة والتسرّع في إصدار الأحكام، والرغبة القويّة في التغيير اللاّمدروس للواقع، ولربّما تنهض من رغبة في «التكفير» عن الماضي بأسرع صورة وبأقصر طريق ممكن.

ومن المظاهر الواضحة لتلك الآثار: البساطة عند (المنقلِب) في إصدار الحكم بتكفير الآخر المختلف، والميل لتوظيف الوسائل العنيفة لتغيير الواقع أو تصحيح الخطأ في المجتمع، والضجر من كلِّ خطأ يصدر من الآخرين. ولذا جاءت النصيحة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله «**إنّ هذا الدّين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله**

فإنّ المُنْبتّ[1] لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع».

وإذا كان مثل هذا الانقلاب العنيف قابلاً للتصوّر بشأن عامة الناس، فإنّ صدوره من بعض (أهل العلم) الذين ينهضون بمسؤوليّة الإرشاد والتوجيه، وذلك بتغيير جُلَّ قناعاتهم ومرتكزاتهم الفكرية بين ليلة وضحاها وبصورة معاكسة تماماً، يُعدّ مؤشّراً خطيراً يستدعي التأنّي في التعامل معهم، وقبول ما يطرحونه باسم الدّين، لأنّ من المفترض أن تكون متبنّياتهم السابقة، إن لم تكن كلّها فأغلبها، ناتجة عن قناعة ودراسة، وليست منطلقة من حالة إرثيّة بحتة، ولذا، فإنّ من المتوقّع في مثل هذه الحالات، أن تظهر علامات التطرّف والعنف الفكريّ والمسلكيّ عليهم كما هو حال بقيّة الناس.

موازين للتقييم

في الخبر المرويّ عن رابع أئمة أهل البيت الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، مجموعةٌ من عناصر تقييم الأفراد في ظاهر تديّنهم، وقد تكون مؤشّراته صالحة للتطبيق فيما نحن فيه، قال: **«إذا رأيتم الرجل قد حَسُنَ سَمْتُه وهديُه، وتماوتَ في منطقه، وتخاضع في حركاته، فرويداً، لا يغرنّكم، فما أكثرَ مَنْ يُعجزه تناول الدنيا وركوب المحارم فيها، لضعف نيّته ومهانته وجُبن قلبه، فنَصَب الدّين فخّاً لها، فهو لايزال يختلّ الناس بظاهره، فإن تمكّن من حرام اقتحمه.**

فإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام، فرويداً، لا يغرّنكم، فإنّ شهوات الخلق مختلفة، فما أكثر من ينبو عن المال الحرام وإن كَثُرَ، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرّماً.

---

(١) المنبتّ هو الشخص المتعجّل لقطع مسافةٍ ما في وقت قصير، فيُجهد دابّته بأن تسرع دائماً حتى ينجز مسافته بسرعة ولا يراعي قدرة دابّته وتحمّلها، فتسقط دابته من شدّة التعب ويكون قد خسر دابّته ولم يصل لمبتغاه.

فـإذا وجدتموه يعفّ عن ذلـك، فرويداً، لا يغرنّكم حتى تنظروا ما عقده عقله. فما أكثر من يترك ذلك أجمع ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسـده بجهله أكثر ممّا يصلحه بعقله.

فـإذا وجدتـم عقله متيناً.. فرويداً، لا يغرّنكم حتـى تنظروا مع هواه يكون على عقله، أو يكون مع عقله على هواه ؟ وكيف محبّته للرئاسات الباطلة وزهده فيها؟ فـإنّ في الناس من خسـر الدنيا والآخرة بتـرك الدنيا للدنيا، ويرى أنّ لذّة الرئاسـة الباطلـة أفضل مـن لذّة الأموال والنعـم المباحة المحلّلة، فيتـرك ذلك أجمع طلباً للرئاسة...».

❁ ❁ ❁

العمل التطوّعي

العمل التطوّعي جزءٌ من هويّة الإنسان المسلم، بمعنى أنّ هذه الشخصيّة لا تكتمل إلاّ بنهوض صاحبها بهذه المسؤولية، وباعتباره ضريبة الحياة وزكاة النِّعَم الإلهية التي يرفل فيها الإنسان .

وإذ كان العمل التطوّعي يعني التعب الذاتي في مقابل إراحة الآخرين، فإنّه بالتالي يرتبط بالصراع بين الأثرة والإيثار، وهو مصداق قوله سبحانه: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[الحشر: ٩].

ولا يقتصر اتّجاه العمل التطوّعي في المنظور الإسلاميّ على خدمة الإنسان، بل يشمل الوجود المادّي الذي يعيش فيه الإنسان بمكوّناته المختلفة، ومثاله ما رُوِيَ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان إلاّ كان له به صدقة**».

وإن كان العمل التطوّعي المخلِص ينبع من إنسانيّة الإنسان، إلا أنّ الإسلام قد أعطاه أبعاداً أخرى أملاً في تحقيق السعي والسبق والمسارعة التي عبّرت عنها النصوص الإسلامية في هذا المجال، وذلك من قبيل: ﴿**فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ**﴾[البقرة: ١٤٨]، ﴿**كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾[الأنبياء: ٩٠]،

ويقول رسـول الله (ص): «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار**».

ومن هذه الأبعاد

* المكافـأة فـي الدنيا من خلال دفع البـلاء عن المتطوّع، إطالـة عمره، جعل البركة في وقته، توفيق الآخرين لمساعدته، السمعة الطيّبة .. إلخ .

* المكافأة في الآخرة بالنعيم أو دفع جزء من العقاب.

وقـد تلخّـص البُعدان في قولـه عزّ اسـمه: ﴿**مَنْ عَمِـلَ صَالِحاً مِّـن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَـى وَهُـوَ مُؤْمِـنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَـنِ مَـا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[النحل: ٩٧].

نماذج رائعة

* **النبـي(ص) يتطـوّع لرفع معانـاة محتـاج**: «رُوِيَ أنّ رجلاً مـن الأنصار أتى النبيّ صلى الله عليه وآله وسـلم يطلب منه المسـاعدة لفقـره، فقال النبي: **أَمَا في بيتك شـيء**؟ قال الرجل: بلى، حلس (فراش) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشـرب فيـه من الماء. قـال: **ائتني بهما**. فأتـاه الرجل بهما، فأخذهما رسـول الله بيده وقال: **من يشـتري هذين**؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال: **من يزيد على درهـم**؟ مرتين أو ثلاثـاً! قال رجل: أنـا آخذهما بدرهمين. فأعطاهمـا إياه وأخذ الدرهميـن وأعطاهما الأنصاري وقال: **اشـتر بأحدهما طعامـاً فانبذه إلى أهلك، واشـتر بالآخـر قدوماً** (فأسـاً) **فأتني به**. فأتاه به فشـدّ فيه رسـول اللـه عوداً بيده، ثم قال له: «**إذهب فاحتطب وبِع، ولا أرينك** (أراك) **خمسـة عشـر يوماً**». فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم!» لاحظ كيف تطوّع النبي

صلى الله عليه وآله وسلم لرفع معاناة الفقير من خلال المزاد الذي أقامه، ثم الفأس الذي اقترحه وصنعه، وهو الحاكم والنبي وسيّد البشر!

* **الإمام علي(ع) يحفر الآبار ويزرع:** اهتمّ أمير المؤمنين عليه السلام بالعمل التطوّعي قبل خلافته وبعدها، فعُرف عنه أنّه إذا فرغ من أشغاله بادر لحفر الآبار أينما وجد لذلك حاجة، وأوقف بعضها على الحجاج، ومنها: عين البيحر، جبير، خيف ليلي، خيف بسطاس، نولاً، أبي نيزر، البغيبغة، أرينة، بئر الملك، والآبار المعروفة عند ميقات مسجد الشجرة حتى سُميت المنطقة باسم (أبيار علي).

كما اهتمّ عليه السلام بالزراعة تطوّعاً، وفي خبر أنّه كان يحمل الوسق (٦٠٠ كجم تقريباً) فيه ثلاثمائة ألف نواة، فيُقال له: ما هذا ؟ فيقول: «**ثلاثمائة ألف نخلة إن شاء الله**». فيغرس النوى كلّها، فلا تذهب منه نواة.

* **زوجة ابن أبي أوفى:** لما وصل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قرية قباء وهو في طريق هجرته إلى المدينة المنوّرة، استقرّ فيها بضعة أسابيع، فبنى أول مسجد في الإسلام، وهو مسجد قباء ـ وقد نقل لنا أحد أبناء هذه القرية صورة رائعة للعمل التطوّعي النسائي، إذ كانت امرأته تحمل الحجارة ليلاً مساهمةً منها في هذا البناء ـ قال ابن أبي أوفى حين تُوفّيت زوجته: احملوها، وارغبوا في حملها، فإنّها كانت تحمل ومواليها بالليّل حجارة المسجد الذي أُسِّس على التقوى.

لاحظ كيف استطاع الإسلام أن يغيّر الإنسان وفي فترة قياسيّة، من موجود أناني يعيش (للأنا) إلى إنسان تفيض به المشاعر، ويعيش روح الجماعة، ويسارع إلى الخير.

❁ ❁ ❁

هل الدِّين أساس الحروب بين الناس؟

شهد تاريخ البشرية حروباً دينيّة عنيفة تركت آثارها المدمّرة لأزمانٍ طويلة على البشـر وعلى المادّة، وخلقت أجواء من الكراهيـة الدفينة، وزرعت بذور حروب مستقبلية لا تقلّ عنفاً ولا امتداداً عن سابقاتها.

ولعـلّ مَنْ يقـرأ القضيّة على عجل سـيجد، أنّ حسّ القداسـة الغيبيّة في ما يتبنّـاه النـاس مـن الأديان، وحـرارة الإيمان التي تسـري في عـروق المؤمنين بهـا، هي التي تدفعهـم إلى إلغاء الآخر ومن ثمّ العمل على مَحْوِه من الوجود، وبذلـك يتحـوّل المؤمـن بالدّين إلى شـخصيّة عدوانيّة سـاحقة ضدّ الإنسـان الآخر «الكافر».

وهــذا مـا يجعل مـن الحروب الدينيّة أمـراً طبيعيّاً أمام الخلافـات الدينيّة، سـواء أكانت منطلقـة من عمق الإيمان، أو من اسـتغلال الشِّـعار، ولهذا يدعو البعـض إلى إلغاء الدّين من حياة الإنسـان لتسـتطيع الإنسـانية أن تحصل على السلام.

ونحـن بدورنـا لا ننكر أنّ للدين ـ ونخصّ الإسـلام في حديثنا هـذا ـ تأثيراً على الوجدان الإنسانيّ أكثر من أيِّ فكرٍ آخر، ولكن ليس معنى ذلك أنّ الروح الدينيّة تنطلق من فكرة إلغاء الآخر، بل هي تدعو إلى الانفتاح عليه ومحـاورته

واستخدام الحكمة والمنطق كوسيلة للإقناع ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[النحل: ١٢٥]، نعم الجهل والتخلّف اللذان يسيطران على بعض المجتمعات المتديّنة، أو الأفراد المتديّنين، هما اللذان يدفعان إلى المواجهة الخاطئة والعنف اللامبرّر.

ثم إنّ الحروب قد تنشأ من اعتداء الآخر الذي يعمل على العدوان على الموقع الدينيّ عسكريّاً أو اقتصاديّاً أو سياسيّاً، ممّا يجعل الحرب أمراً وقائيّاً أو دفاعيّاً، ولا يمثّل عندهم تنفيساً لعُقَد، بل علاجاً للواقع الصعب.

هذا فضلاً عن أنّ اتّهام الدّين، بأنّه السبب الرئيسيّ في إشعال الحروب كلامٌ غير دقيق، فالخلافات العرقيّة والقوميّة والاقتصاديّة والسياسيّة كانت وما زالت وراء كثير من الحروب التي كثيراً ما تستّرت بشعار دينيّ لتكتسب من القداسة ما يكفل لها فرص الانتصار في المعركة من خلال تجييش الشعوب ودفعها للقتال إلى النهاية.

بل إن الدّين لاسيما الإسلام ألغى الفروق العرقيّة والقوميّة والجغرافيّة، فهو على هذا يمثّل عاملاً مهمّاً في تجفيف منابع الحرب وإلغاء أسبابها، خصوصاً مع التأكيد على نبذ التعصّب وأنّه «**مَنْ تَعصّب أو تُعصِّب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه**».

ولربّما يمكننا القول، إنّ الدّين بطرحه القضايا الإنسانيّة للمضطهدين أو المحرومين أو المستعبدين كعناوين كبرى لحركته في ساحة الصراع والمواجهة، قد جعل الحروب التي يخوضها المؤمنون حروباً «إنسانيّة» في عنوانها الأوّلي المباشر، لا حروباً دينيّة بمعناها التقليديّ.

إنّ مَـنْ يحمل الدّين عِلْماً وعملاً ووعياً ومسـؤوليّةً، لـن تكون الحرب خياره الأول فـي التعامل مع الآخـر المختلف، بل هو خياره الأخير فيما لو اعتُديَ عليه أو سعى الآخرون لإلغائه من الوجود.

❀ ❀ ❀

هل يتحوّل الناس إلى Zombies

المجتمعات الإنسانيّة اليوم هي ضحيّة ـ بصورة أو بأخرى ـ الشركات التي تسعى لزيادة أرباحها بصورةٍ لا معقولة، مع الاعتماد كثيراً على الدعاية والإعلان بشكلٍ مدروس وعلميّ. نعم، لا يمكن تحميل الشركات كامل المسؤوليّة في ذلك، فبإمكان الإنسان أن يضبط سلوكيّاته، ويقتصد في معيشته، ويُحسن التدبير، ويتّخذ قراراته بحرّية، إلا أنّ التلاقي الحاصل بين قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾[آل عمران: ١٤]، وبين جشع المصنّعين والتنافس لا سيّما بين كبريات الشركات، هذا التلاقي يولّد حالة لا عقلائيّة في الاستهلاك.

وإذا أضفنا الأرقام الرهيبة لحجم التدمير والاستهلاك البيئي الناشئَيْن بِفِعْل ذلك، فإنَّ المسألة تزداد خطورة كما هو واضح، إذ قرأت أنّ ما استُخرج خلال ٨٠ سنة الأخيرة من القرن العشرين مَثَّل: ٧٠٪ من إجمالي ما استُخرج من الذهب عبر التاريخ، ٨٥٪ من إجمالي ما استُخرج من النحاس عبر التاريخ، ٨٧٪ من إجمالي فلزات الحديد، ٩٠-٩٥٪ من إجمالي كلٍّ من القصدير، الرصاص، الزئبق، الفضة، الماس. وإذا أخذنا على سبيل المثال الوقود الأحفوري، فإنّ ما تشكّل في الطبيعة خلال قرابة ٢٥٠ مليون سنة، استهلكته وستستهلكه البشرية

في غضون ١٠٠-١٥٠ سنة. أي بمعنى آخر أنّ كلّ سنة استهلاك تُعادِل مليون سنة بناء وربّما أكثر.

تقرير علميّ وطريف اطّلعتُ عليه مؤخّراً يتعلّق بفرعٍ علميّ جديد يعرف بـ«الاقتصاد العصبي» Neuroeconomics، وهو يدرس العمليّات الذهنيّة والعصبيّة التي تقف وراء اتّخاذ قرارات على المستوى الاقتصادي الفردي، مثل الاستهلاك والتوفير والاستثمار، يقول هذا التقرير: «درس العلماء الخيار الاقتصادي وواقع أنّ المستهلكين يتصرّفون أغلب الأحيان بصورة غير منطقيّة أمام خيار انعكاساته قصيرة المدى، ولكن بصورة أكثر تعقّلاً عندما يتعلّق الموضوع بأمرٍ بعيد المدى».

وبيّنت النتائج أنَّ «وقْع ثمن السلعة على العقل والألم الذي قد يسبّبه فقد المال عند الشراء كلّها عوامل حاسمة في كبح جماح عملية التبضّع، وهو ما يُبرّر اختلاف الناس في الإقدام على الإسراف في الاستهلاك الشرائي في حال الدفع نقداً مقابل استخدام البطاقات الائتمانية، حيث يتمّ تأجيل الخسارة ولو إلى حين. وهذه كلّها عوامل ستضعها الشركات التجارية في الحسبان عند تصميم الموجة القادمة من حملاتها الإعلانية».

كما تثير تقنيات «التسويق العصبي» الكثير من الجدل والمخاوف لا سيّما مع الاهتمام المتزايد بها من قبل كبريات الشركات التجارية، وما شهدته المحاكم من قضايا مدنيّة ضدّ هذا النمط من الدراسات!

ويقول بعض الخبراء: «فكرة التسويق العصبي تعطي انطباعاً بأن يغدو معها المتسوّقون أشبه بقطعان «الموتى الأحياء» أو الـ «Zombies» الواقعين تحت سحر العلامة التجارية».

وهنا تبرز مجدّداً أهمّية التربية الأخلاقية المتعلّقة بالزّهد وكبح جماح الرّغبات الذاتيّة وطول الأمل وتحوّل الإنسان إلى ألعوبة بيد شهواته، وكلّها عناوين أهتمّت بها النصوص الإسلاميّة وأوْلتها عناية كبيرة، ودارت حولها دراسات ومؤلّفات عديدة.

ويمثّل كتاب نهج البلاغة مخزوناً أخلاقيّاً رائعاً في هذا المجال لمن يحبّ أن يكوّن رؤية إسلاميّة حول العناوين السابقة، وكيفيّة التعامل والمفاهيم التربويّة الأخلاقيّة لمواجهة الموجة المحتملة للإقبال على الاستهلاك الجنونيّ لا سيّما باستخدام علم «الاقتصاد العصبي» القادم بقوّة في مجال التسويق، وقد كتب المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدّين في هذا الصدد كتاباً بعنوان (دراسات في نهج البلاغة)، والشيخ الشهيد مرتضى المطهري (في رحاب نهج البلاغة) وآخرون في هذا الإطار عرضاً وتحليلاً.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيّته لشريح بن هانىء لَمّا جعله على مقدّمة جيشه إلى الشام: «... **وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ، مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ، سَمَتْ بِكَ الأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ. فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً**».

علاقة الأخلاق بالفقه الإسلامي

لا يختلف اثنان على أنّ كلّ التشريعات الإلهيّة أُريدَ بها صلاح الإنسان كفرد، أو الإنسان كمجموع، من خلال دفع مفسدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠-٩١]، أو جلب مصلحة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣].

وقد تعرّضت مجموعة من النصوص الشرعيّة لبيان هدف (أو أهداف التشريع)، وهو ما يصطلح عليه الفقهاء بـ(مقاصد الشريعة)، وهي تنقسم إلى:

١ ـ العلة التامّة القطعيّة للحكم، من قبيل (كل مسكر حرام)، فالإسكار علة قطعيّة وتامّة، يعتمد عليها الفقهاء في تحريم كلّ شراب مسكر.

٢ ـ الحكمة التي تبيّن جانباً من أهداف التشريع، وليست علّة تامّة له، من قبيل لزوم العدَّة، فقد ذكرت بعض الأحاديث أنّ الحكمة في ذلك منع اختلاط الأنساب، فهي فترة يتبيّن من خلالها الحمل من عدمه، إلاّ أنّها ليست العلّة

التامّة لتشـريع العـدّة، ولذا حكموا بلـزوم العدّة على المطلّقة وإن اسـتأصلت رحمها.

فلسفة الفقه

وينحـو بعـض الفقهـاء مؤخّراً إلى تأسـيس علـم جديد يدرَّس فـي الحوزات العلميّـة بعنوان (فلسـفة الفقـه) يتضمّن فـي مجالاته (مقاصد الشـريعة)، بهدف المسـاعدة في اسـتنباط الأحكام الشـرعيّة بصورة أقرب إلـى الصحّة، ويضربون على ذلك المثال التالي من كلام الشـهيد الفقيه مرتضى المطهري: «أصل العدالة أنّهـا من معايير الإسـلام، بحيث يُلحظ ما يتطابق معهـا وما لا يتطابق... فليس ما يقوله الدّين هو العدل، بل حيثما يكون العدل ينطق به الدين، وهذا هو معنى كون العدالة معياراً للدِّين».

التعلّق بالظاهر

ومن المؤسف أنَّ غالبية الناس يتعبّدون بظاهر الأحكام الشرعيّة، ولا يولون أهميّـة لأهداف التشـريع التي تعمل علـى البناء الروحيّ والأخلاقـيّ والفكريّ وتأسـيس المجتمـع الصالـح، والتـي هـي دوافـع تلـك التشـريعات والمقصد الأسـاس منهـا، ولذا تـمّ تفريغ العبادات من روحها، وانشـغل الناس بجسـمها الظاهريّ.

والمؤسّسـة الدينيّـة تتحمّل العبء الأكبـر في هذه الظاهرة السـلبيّة، بتركيزها في خطاباتها ومؤلّفاتها على الممارسـة الميكانيكيـة للعبادات وإهمال الجوانب الأخـرى فيهـا، وهو ما التفتَ إليه الشـهيد الفقيه السـيّد محمد باقـر الصدر، فقد عبّر تلميذه العلامة السـيد عبدالله الغريفي بقولـه: «وهناك بُعْدٌ آخر أكّد عليه هذا

المشـروع التغييري عند الشـهيد الصدر، وهو حالة التزاوج بين الفقه والأخلاق، فقد لاحظ الشـهيد الصدر ظاهرة انفصال «المسـألة الأخلاقيّـة» عن «المضمون الفقهي» في تطبيقات الإنسان المسلم، حيث إنّ المسائل الأخلاقيّة لا تملك قوة «الإلـزام الفقهـيّ» فلا حرج فـي التخلّي عنهـا. ومما كرّس هذا الفهـم عند الفرد المسـلم هو الافتـراق بين الفقه والأخلاق في «الرسـائل العمليّـة» للفقهاء، وفي «الكتـب الأخلاقيّـة». وفي ضـوء هذا الرفـض لهذيـن الاتجاهين يؤكّد الشـهيد الصـدر على ضرورة التزاوج بين المضمون الفقهيّ والمضمون الأخلاقيّ، وهذا التـزاوج يعطي للالتزامية الفقهية مضموناً أخلاقياً، ويعطي للممارسـة الأخلاقيّة إلزامية فقهيّة».

الحجّ نموذجاً

ولتقريب الصورة أكثر فإنّه يمكن استعراض بعض النصوص الخاصّة بالأبعاد التربويّة لمناسـك الحجّ، ليقيس من خلاله كلّ من حجّ إلى بيت الله الحرام مدى قُربه أو ابتعاده عن الممارسة المتكاملة لهذه الشعيرة الهامّة:

ـ الإحرام: عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**وإنّما أُمِروا بالإحرام ليخشـعوا قبل دخولهم حرم الله وأمنه ولئلا يلهوا وينشغلوا بشيء من أمور الدنيا وزينتها ولذاتها، ويكونوا جادين فيما هم فيه، قاصدين نحوه مقبلين عليه بقلبهم، مـع ما فيه من التعظيم لله عزوجل ولبيته، والتذلل لأنفسـهم عن قصدهم إلى الله عزوجـل ووفادتهم إليه راجين ثوابه، راهبين من عقابه، ماضين نحوه، مقبلين إليه بالذلّ والاستكانه والخضوع**».

ـ السـعي: عـن الإمـام جعفر الصادق عليه السـلام: «**جُعِلَ السّـعي بين الصفا والمروة مذلّة للجبّارين**».

ـ الهـدي: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَـعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ... لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾[الحج: ٣٦-٣٧].

الأخلاق أولاً

ومن ناحية ثانية، فإنّ بعض الأحكام الشرعيّة تأتي كحدٍّ أدنى في التعامل بين الناس، لا سيّما في حال النِّزاعات، وإلا فإنّ التصرّف الذي يكون أقرب إلى مرضاة الله سبحانه هو الأوفق بالقيم الأخلاقيّة كقيمة (التعامل بالمعروف)، وهذا لا يعني أن ننظر إلى تلك التشريعات نظر الريبة، بل هي تأتي كقوانين ملزمة لتنظيم الأمور ولفضّ النّزاعات، وكحلول أخيرة في حالات عدم التوافق.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُواْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٣١]، فمن حقّ الزوج أن يُرجع زوجته في فترة العدّة الرجعيّة، إلا أنّ القيمة الأخلاقيّة تتمثّل في عدم استغلال هذا التشريع المقنّن بهدف تيسير إعادة العلاقات الزوجيّة بعد وقوع الخلاف والطلاق، حيث يقوم البعض بانتظار الأيام الأخيرة من نهاية العدّة، فيعمل على إرجاع زوجته، لا حبّاً فيها، وإنّما إمعاناً في أذاها، وهو ما نهت عنه الآية وحذَّرت منه، واعتبرته مخالِفاً للأخلاق والتقوى... والأمثلة على ذلك في القرآن الكريم عديدة.

وخلاصة القول: إنّ العلاقة بين الأحكام الشرعيّة وبين الأخلاق وثيقة إلى حدٍّ بعيد، بل تأتي بعضها أهدافاً للتشريع ذاته، وهو ما يستدعي العمل على تطوير الجانب العلميّ والعمليّ عند المسلمين في هذا الإطار.

❁ ❁ ❁

قِفوهم.. إنّهم متطرّفون

عندمـا يصل الإنسـان إلى قناعة جديدة مختلفـة تماماً عن متبنّاه السـابق، فإنه يكـون عُرضـة في كثيرٍ من الأحيان إلى التطرّف فـي تبنّي هذا الجديد، وكأنّه يريد أن يكفّـر عما مضى، أو يُبرّر للآخرين سـبب هذا التغيّـر وصحّة ما أقدم عليه، أي إنّ الشخصانيّة هي العامل الأبرز في ظهور هذه الحالة.

ومثـل هـذا التطـرّف يفـرز ثلاثـة أمـور: كراهيّـة الآخـر.. الجمـود الذهني.. التعصّـب. ومن يمتلك ثقافة قرآنية يدرك بوضوح أنّ هذه المفرزات لا تتلاءم مع الشخصيّة الإسلاميّة.

الكراهية

فالكراهيّة تعني إغلاق منافذ القلب، ولا يمكن أن تنفذ إلى قلوب الآخرين إن لم يستشـعروا فيك ما تكنّه من حبٍّ حقيقي لهم.. حبّ يبتني على احترام إنسـانيّة الآخر والرّغبة في أن يشمله الخير. ومن المعلوم أنَّ الشخصيّة الإسلاميّة يفترض فيهـا أن تكون شـخصيّة جاذبة لكـي تؤثّر في الاتّجـاه الصحيح، وهـذه الجاذبيّة سـتكون مفقودة حتماً إن شـعر الآخرون أنّك لا تحمل شـيئاً من الحبّ تجاههم، بل وربّما تكنّ لهم الكراهية.

قال عزّ اسمه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٩]. وبمثل هذه الروحيّة استطاع المسلمون أن يحقّقوا التوأمة الروحيّة والعمليّة في مجتمع المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا كان البعض من هؤلاء يحمل مشاعر الحبّ تجاه من يتّفق معه فيما تطرّف له، فإنّ مثل هذه المشاعر يجب أن تنطلق إلى دوائر أرحب، لأنّ النجاح الحقيقي يتمثّل في أن تكسب قلب مَنْ يختلف معك لتبدّل سلبيّاته إيجابيّات، لا أن تدور في فلك من يتّفق معك، لتبقى رهين أفكارٍ محدودة وعلاقاتٍ ذات طابعٍ واحد.

الجمود الذهني

العقلانيّة سِمة أساسيّة في الشخصيّة الإسلاميّة، والجمود الذهني يعني فقدان أحد أهمّ مقوّمات البناء الفكريّ، بل ويعني تهديد المسار الحضاريّ للأمّة وتعريضها لخطر الانحراف، إذ يقف حاجزاً أمام الحيويّة والإبداع، ويعمل على تحويل العادات والتقاليد إلى مقدّسات، ويُبقي الأمّة في حالة من الدوران في فلك الماضي.

وقد ابتُليَ بهذا المرض أتباع الأديان السماويّة عندما وقفوا على الظواهر وحوّلوا الدّين إلى طقوس شكليّة لا مضمون ولا فاعليّة لها، ما جعل الدّين يتجمّد في أطر ضيّقة، ولا ينطلق في الساحات العلميّة الرَّحبة، لأنّنا عندما نجعل الدّين في مواجهة حركة العلم والحياة، فإنَّ الخاسر الأكبر في هذا الميدان وفي هذا الصراع سيكون الدّين نفسه، حيث إنّ سُنن التاريخ برهنت على أنّ المنتمين للدِّين عندما يكفّون عن التحرّك في أجواء العلم والعطاء، يتجمّد الدّين في

نفوسهم، وينكفىء عن حركة الصراع والإبداع على مستوى العالم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:١٩٠-١٩١].

التعصّب

عندما تتحرّك الشخصيّة في إطار الجمود الفكريّ والانفعال الذاتيّ وتقديس الماضي لماضويّته، فإنَّ التعصّب يأتي لا محالة، لأنّه قرين هذه السِّمات، أما المنهج القرآني فإنّه يعمل على بناء شخصيّة قادرة على التلاقي مع الآخرين، يتّسع صدرها للحوار، وتستمع إلى أصوات المخالفين، وتبحث عن نقاط الالتقاء، وهو منطلق الثناء على شخصيّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتوكّل عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتوكّلينَ﴾[آل عمران:١٥٩].

إنَّ تغيير القناعات أمر مقبول بل ولربّما يصل إلى حدّ الوجوب ما دام يبتني على أسس سليمة، ولكن الحذر من الوقوع في فخّ التطرّف، أمرٌ أكثر أهميّة، وهو ما ينبغي الالتفات إليه من قبل العاملين في طريق التغيير، ليزرعوا في نفوس المتأثّرين بهم روحَ التسامح والانفتاح وشرحَ الصدر.

❁ ❁ ❁

عرائس المخدِّرات

خالدة سـعيد شاه... هذا هو اسم الطفلة الأفغانية التي تُواجه مصيرها البائس، لأنّها أضحت واحدة من عرائس المخدِّرات!! طفلة في التاسعة من عمرها بِيعَت لرجلٍ في الخامسة والأربعين لتغدو زوجاً له بالإجبار... وبديلاً عن ٢٤ كجم من الأفيون!! فما قصّة هذه الطفلة؟

الإنسان بين المادّة والغيب

من المنطقي أن ينطلق الإنسـان في تخطيطه لأموره من خلال الحسـابات المادّية، وبالاعتمـاد علـى معطيات الأرقـام والحقائق على الأرض، وإلا كيـف نفهم التوجيه الإلهي للمسلمين في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُـونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُـمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾[الأنفال: ٦٠]؟

النبي داود(ع) يصنع السابغات

وكذلك نجد الخطاب الإلهي للنبي داوود عليه السلام الذي كان يواجه حروباً شرسة مع أعداءٍ أقوياء: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا**

لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سبأ: ١٠-١١]. والمُلفت للنظر أنّ الله تعالى يوجّه نبيّه لأهميّة الدقّة في تصنيع القميص الحديدي المُعدّ بصورة تشبه الشبكة، بأن (قدّر في السرد)، فلا تكون الحلقة الواحدة ضيّقة بحيث يفقد القميص مرونته، ولا تكون واسعة فينفذ فيها نصل سلاح الأعداء!! هكذا هو الإسلام... تخطيط وعمل ودقّة واتقان وإبداع.

خمسة آلاف ملَك في معركة بدر

ولو كان أحد سيعتمد على العامل الغيبي وحده لكان الأنبياء هم الأوْلى بذلك، كيف لا وقد أرسل الله عزّ وجل خمسة آلاف من الملائكة ليؤيّدوا المسلمين في معركة بدر، عِلماً بأنَّ عدد المشركين لم يتجاوز الألف!! ألم يكفِهم ملَكٌ واحد فقط؟! والإجابة تكمن في ذات الآية التي تحدّثت عن الأمر: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[آل عمران: ١٢٥-١٢٦]. فالمسألة لم تتعدَّ أن تكون دفعة معنويّة ولم ينخرطَ أيٌّ من الملائكة في الحرب.

المؤمن لا يهمل العامل الغيبي

إلا أنّ الاعتماد الكلّي على الحسابات المادية ونسيان حقيقة أنّ الله سبحانه مالك المُلك مدبِّر كلّ شيء الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة، وأن لا شيء في الكون يتحقّق إلا بمشيئته وإرادته، نسيان هذا والغفلة عن التوكّل على الله والاستعانة به، كفيلٌ بأن يُوقِع الإنسان في أخطاء قاتلة.

نموذج من القرآن

﴿الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨]، هذا نموذج من القرآن الكريم يحكي صورة من صور الوقوع في فخّ الاعتماد الكلّي والأوحد على العامل المادّي، فتزكية المال في الحساب المادي البحت لا يعني سوى نقصان المدَّخرات الشخصيّة، وفي الحساب الغيبي يعني نماء المال وحلول البركة فيه ونيل الرحمة في الدنيا والآخرة.

عرائس المخدِّرات

ومجدَّداً مع قصة الطفلة خالدة الواردة في مقال نشر في مجلة النيوزويك بتاريخ ٨ إبريل ٢٠٠٨، فالمقال يتحدّث عن مأساة إنسانيّة تعيشها الأسر الأفغانيّة التي تقتات على زراعة الأفيون!! وتتلخّص مأساتهم في عجز ربّ الأسرة عن سداد القرض المخصّص لهذه الزراعة، فيضطر لبيع ابنته للمقرِض الذي يتنازل عن حصّته من الأفيون الخام في مقابل هذه البنت التي قد لا تتعدّى الخامسة من عمرها، لتتحوّل قسراًإلى زوجة لهذا المرابي المتاجر بالأفيون. ويؤكّد المقال على أنّ نصف الزيجات في مقاطعتَيْن أفغانيتين تمّت بهذه الصورة!! وخالدة واحدة من أولئك الضحايا...

وعلى الرّغم من التسهيلات والبدائل التي تقدّمها الدولة الأفغانيّةحسب المقال لهؤلاء المزارعين لتبديل زراعتهم بزراعة تعود عليهم وعلى المجتمع بالفائدة، إلا أنّهم بحساباتهم المادّية البحتةيصرّون على زراعة الأفيون لأنّه أكثر وأيسر ربحاً من سائر المحاصيل الزراعية، غافلين عن أنّ الله يسلب البركة عن المال الحرام، وأنّ الله طيّب لا يقبل إلا طيّباً، ومن وَضَعَ قدميْه على طريق الشّيطان كان عُرضة للانزلاق إلى مهاوي الخسران... وصدق الله عزّ وجل إذ قال: ﴿الشَّيطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء﴾[البقرة: ٢٦٨].

❁ ❁ ❁

إعقلها وتوكّل

القلـق.. التوتّـر.. الخوف من المسـتقبل المجهول.. الفشـل.. الفقر.. انعدام الأمـن.. هـذه العناويـن وغيرهـا بمجملهـا تمثّل ضغوطـات رهيبة علـى أغلب الناس، لا سيّما في الظروف الاستثنائيّة وفي الفترات الحسّاسة من حياتهم، حتى بات الناس مرتهنين لهذه العناوين، وتحت رحمة نتائجها!

ولكن من رحمة الله سـبحانه ولطفه أنْ قدّم لنا (التوكّل عليه) كحقيقة عمليّة ذات تأثير نفسـانيّ رائع، تُسْـهِم في التخفيف كثيراً من هذا الضغط الرهيب الذي يواجهـه النـاس، لا سـيّما فـي هذا العصـر الذي تسـارعت إيقاعاته حتـى لم نعد نسـتطيع الاطّلاع التـامّ على ما هو جديد، وما بات قديماً غير متناسـب مع (روح العصر).

مفهوم التوكّل على الله

عندمـا يمتلـك الإنسـان شـيئاً ويريد أن يبيعـه مثلاً، يلجـأ أحياناً إلـى تفويض الأمـر لشـخص يكـون وكيلاً عنـه في ذلـك، ومن المفتـرض أن يبحـث المالك عن وكيلٍ موثوقٍ به، عارفٍ خبير بشـؤون السـوق وخصاص هذه البضاعة، قادرٍ علـى أن يُنجـز له هـذه المهمّة بالصورة المطلوبـة. وقد يقوم الوكيل فـوراً بإتمام

الصفقـة، ولربّما يؤجّـل الموضوع بحكمتـه ودرايته بهدف الحصول على سـعر أعلـى، فالأمانة والخبرة والدراية والقدرة عناصر مهمّة تدفع المالك للركون إلى تصرّفات الوكيل والثقة فيه.

والمثـال السـابق يقـرّب لنا مفهوم التـوكّل على اللـه، فقد عُرِّف التـوكّل بأنّه: (تفويـض الأمور إلى اللـه والاعتماد على لطفه) لإنجاز أمـر بالصورة المطلوبة، أو بما يعود على الفرد بالمنفعة وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، لأنّ (التوكّل) من مادّة (وكالة) بمعنى اختيار الوكيل والاعتماد عليه في تسيير الأمور.

وإذا كانت درجة الاطمئنان والراحة النفسـيّة عند الإنسـان تزداد بازدياد درجة القـدرة والخبـرة والدرايـة عند الوكيـل، فكيف بالإنسـان إذا كان وكيلـه هو الله سبحانه.. الله العليم الحكيم الخبير القدير الغنيّ؟!

والمُلفـت للنظـر أنّ اللـه سـبحانه وتعالـى، هو المالـك الحقيقي لـكلِّ ما في الوجود، وملكيّتنا نحن البشـر لما في أيدينا إنّما هـي ملكيّة اعتباريّة مجازيّة، ومع هذا فقد جعل الله تعالى ذاته المقدّسة وكيلاً عنّا فيما يملكه هو في حقيقة الأمر!!

روعة التوكّل على الله

والإنسان الّذي يعيش التوكّل على الله لا يشعر إطلاقاً بالحقارة والضعف، بل يرى نفسـه وبالاعتماد على لطف الله وعلمه وقدرته المطلقة منتصراً وناجحاً في حياته الفرديّة والاجتماعيّة، لأنّه بذل وسـعه وفق الحسابات الماديّة، ووكّل الأمر إلـى اللـه، وهو مطمئـنّ إلى وكيلـه كلّ الاطمئنان، فإن تحقّق الأمـر فبها ونعمت واستوجب ذلك الشكر، وإن لم يتحقّق لم يشعر باليأس والقنوط، لأنّه يعلم يقيناً أنّ وكيله أعلم بالمصلحة الدنيويّة والأخرويّة.

فالقاعدة القرآنية تقتضي أنه ﴿وَمَن يَتوكّل عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:٣]، أي إنَّ الأمور مرهونة بأوقاتها، فكلّ شيء يكون بحساب ويتطلّب الزمان والفرصة المناسبة، وهو ما يبعث الراحة النفسيّة لدى الإنسان المتوكّل على العليم القدير، ويخفّف عنه ضغط القلق الذي يعيشه كثيرٌ من الناس وهم يواجهون حسابات المستقبل.

القوّة في التوكّل على الله

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ توكّلتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَىَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾[يونس:٧١]. ونلاحظ هنا هذه القوّة العظيمة والشجاعة الراسخة في كلمات هذا النّبي العظيم، وهي من أثر التوكّل الذي يزرع في النفس القوة حتى أنّه يتحدّى المشركين ويشجّعهم على مواجهته بأجمعهم ودون أيّ تأخير أو تردّد!!

وقال تعالى في قصة نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧]، وما أعظم هذا الإيمان والتوكّل على الله سبحانه الذي يدفع بهذا النبي الذي رُزق بأوّل ولدٍ له وهو شيخ كبير وقد انقطع أمله في الذرّية، فيستسلم لأمر الله ويضع فيه كلّ ثقته، ويتوكّل عليه، فيترك الرضيع مع أمّه في وادٍ صحراويّ بلا ماء و بلا حام سوى الله سبحانه!!

تخطيط وتنفيذ وتوكّل على الله

قال تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا بَنِىَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ

لِلَّهِ عَلَيْهِ توكّلتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتوكّل الْمُتوكّلونَ﴾[يوسف:٦٧]، والآية تمثّل حقيقة، وهي أنَّ مقادير وتدبير الأمور بيد الله لا يعني التواكل والتراخي، بل التفكير والعمل أيضاً، وهذا هو المفهوم الحقيقي للتوكّل.

❁ ❁ ❁

الوسواس

(بوجاسم) رجل شارَفَ على الخمسين من عمره، نحيل، تعلو بشرته صُفرة تحكي معاناته، عندما تستمع إليه تجد حالة التردّد والقلق وعدم الرضا تنبع من كلماته، مشكلته الكبرى أنّه شخص وسواسي في الطهارة وفي الوضوء وفي الصلاة.. زوجته تحكي معاناتها ومعاناة أبنائها معه، وكيف فَقَدَ الكثير من وزنه وأهمل أسرته وفشل ابنه دراسيّاً واجتماعيّاً، والنتيجة أنه حوّل حياتهم إلى جحيم... وبوجاسم واحد من كثيرين يعانون ذات المشكلة، فما حقيقة الوسواس، وكيف عالجت النصوص الدينيّة هذه المشكلة؟ وهل يقع التعارض بين العلم والدِّين في هذا الأمر؟

الوسوسة في القرآن

عندما تحدّث القرآن الكريم عن الوسوسة، لم يتعرّض للوسواس الذي يُصيب الناس وفق المفهوم الدارج علميّاً وعرفاً، ولذا قال الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات: الوسوسة: الخطرة (الفكرة) الرديئة، وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفيّ.

ويمكن أن نقسّم الآيات التي تحدّثت عن الوسوسة إلى:

١ ـ الحديث الخفيّ لشيطان الجنّ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيطانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾[الأعراف: ٢٠].

٢ ـ حديث شيطان الإنس في التّحريض على الباطل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾[الناس: ٤-٦].

٣ ـ الأفكار الذاتيّة أو حديث النّفس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[ق:١٦].

وكل هذه الآيات القرآنيّة لا علاقة لها بالموضوع، وسبب هذا الخطأ يعود إلى استخدام مادّة (وسوس)، والحقيقة أنَّ المشكلة التي نبحث حولها ترتبط بحالة مرضيّة نفسيّة أو عقليّة أو نفسيّة ـ عقليّة. كما أنَّ البعض يخلط بين كثرة الشكّ وبين الوسواس، وهذا خطأ آخر، فكثرة الشكّ قد تكون لعدم التركيز الذهنيّ، أو للهزّات العاطفيّة الحاصلة لدى الفرد، أو نتيجة أفكار تتوالى بفعل حديث النفس أو الإلقاءات الشّيطانيّة، دون أن تصل إلى حدٍّ مَرَضيّ، فهي حالات مؤقّتة وذات تأثير بسيط. نعم قد تتطوّر نتيجة عوامل وراثيّة أو بيئيّة أو نفسيّة لتتحوّل إلى مرض الوسواس القهريّ، ولكلٍّ منهما معالجة مختلفة من عدّة نواحٍ، ولذا قال المرجع الراحل السيد أبو القاسم الخوئي في بيان حكم كثير الشك: (ولكنه يختصّ بغير الوسواسيّ، وأما الوسواسيّ وهو من لا يكون لشكّه منشأ عقلائيّ بحيث لا يلتفت العقلاء إلى مثله فلا يعتني بشكّه مطلقاً).

كثرة الشك

تكرّر الفكرة أو العمل نتيجة الرّغبة في الدقّة أو الالتزام الدينيّ وغير ذلك، دون أن يصل الأمر إلى الحدِّ المرضي، وهذا ما عالجته غالبيّة النصوص الدينيّة، ومنها:

مثال ١: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل أخبره عن نفاقه: **«والله ما نافقت ولو نافقت ما أتيتني، تعلمني ما الذي رابك، أظن العدو الحاضر أتاك فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله خلقني، فقال لك: من خلق الله؟** قال: إي والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال: **إن الشّيطان أتاكم من قِبل الأعمال فلم يقوَ عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده»**. (معالجة معرفية + ذكر الله لترسيخ العقيدة).

مثال ٢: عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد سُئِل عن الوسوسة وإنْ كثرت: **«لا شيء فيها، تقول: لا إله إلا الله»**. (معالجة معرفية + تهوين الأمر كي لا يتطور + الذكر).

مثال ٣: عن الإمام علي عليه السلام: **«صَوْمُ ثلاثة أيام من كلّ شهر، أربعاء بين خميسَيْن، وصوم شعبان، يُذهب بوسواس الصدر، وبلابل القلب»**. (معالجة عملية عبادية).

مثال ٤: عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام لما سُئل عن كثرة شكّ الرجل في عدد الركعات: **«لا تعوِّدوا الخبيث من أنفسكم بنقض الصلاة فتُطمعوه، فإنَّ الشّيطان خبيث يعتاد لما عُوِّد، فليمضِ أحدكم في الوهم، ولا يكثرنّ نقض الصلاة، فإنّه إذا فعل ذلك مرّات لم يعد إليه الشكّ... إنّما يريد الخبيث أن يُطاع، فإذا عُصي لم يعد إلى أحدكم»**. (معالجة عملية).

الوسواس القهري

كلّ النصوص السابقة لا تعالج الحالة المرضيّة المستفحلة، وفي مثل هذه الحالة:

١ ـ لا يكفي أن يكرّر المريض ذِكْراً معيّناً، بل قد يستفحل المرض عنده ويأخذ منحى آخر.

٢ ـ لا يكفـي أن نعلّمـه الحكـم الشـرعي، لأنَّ لديه عوامل ضاغطـة (الفكرة، المزاج، السلوك).

٣ – لا يكفي أن نوحي له أنّ ذلك من الإيمان، بل قد يجده مبرِّراً لما يفعل.

والمعالجـة الصحيحة تكمن في تشـخيص الحالة بعرض الحالة على الطبيب النفسـي المختـصّ، ومعرفة هـل المرض نفسـيٌّ أم عقليٌّ أم نفسـيٌّ ـ عقليٌّ، لأنَّ نقصـاً في المادّة العاملـة على توصيل المعلومات في الدِّمـاغ، أو ضعفاً في نقاط التوصيـل، أو خلـلاً نفسـيّاً حـادّاً كالاكتئـاب أو القلق قد تكون هي السـبب وراء ذلك، ولذا تتمّ المعالجة وفق التشـخيص السليم عن طريق بعض الأدوية لتعديل التركيب الكيميائيّ في الدِّماغ، أو بواسطة الجلسات العلاجيّة النفسيّة.

❁ ❁ ❁

طلّقني !!

(ن) فتاة في العشرين من عمرها، لم يمضِ على عقد قرانها أكثر من شهر، تقف مع والدها أمام إحدى غرف المحكمة بانتظار الدخول على قاضي الأحوال الشخصيّة، أملاً في الحصول على الطلاق من زوجها (ج) الذي لا يكبرها أكثر من ثلاث سنوات.

على وجهها مزيج من مشاعر الغضب والحزن، وعيناها المحمرّتان تقولان الكثير... أما الأب فإنّه لا يفتأ يُتمتم بكلماتٍ تفوح منها رائحة اللوم والعتاب، وهو يسعى لإخفاء حالة الإحراج التي يشعر بها جرّاء كونه في مثل هذا الوضع الذي لا يحسده عليه أحد...

الأب: قلت لكِ لا فائدة تُرجى منه.. فحاله لا تنصلح...

وترد البنت المنكوبة: أنتم أجبرتموني على الزواج.. أردتُ أن أكمل دراستي فأجبرتموني على الزواج.

الأب: لن تتنازلي عن فلس واحد.. لا بدّ أن نُحرق قلبه كما أحرق قلبك الصغير.. أنا يعاملني بهذه الطريقة؟ تمهّلي حتى ندخل على القاضي حتى تعلمي ما سأفعل.

وتدخل (ن) مع أبيها، لتبقى في دهاليز المحكمة وأروقتها أشـهراً طويلة حتى يصـدر القرار النهائي، فهي ليسـت أوّل من تقدّم بطلب الطـلاق، ولن تكون آخر زوجة... فمثلها بالمئات.

تعدّدت الأسباب والطلاق واحد

كثيرة هي الدراسـات والاستبيانات المنشـورة بخصوص أسباب الطلاق، إلاّ أنّ (ضِيْـقَ الصـدر) من العوامل الرئيسـة، وفـي المقابل فإنّ (شَـرْحَ الصدر) من العوامل المهمّة لضمان استمرار العلاقة الزوجية.

فضيـق الصدر قد يبلغ حدَّ ما في قول الله عـزّ وجلّ: ﴿**حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُـهُمْ**﴾[التوبة: ١١٨]، وشـرح الصدر من الأهمية بمكان، حتى منَّ الله به على نبيّنا الأكرم صلّى الله عليه وآله وسـلّم حين توجّـه إلى ربّه بالخطـاب: «**أيّ رب، أنّه قد كان أنبياء قبلي، منهم من سـخَّرت له الريـح، ومنهم مـن كان يحيي الموتى**» فكأنّه يطلب من اللـه أن يعطيه ما يقوّي به شأنه، فجاءه الخطاب القرآني: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[الشرح: ١-٤]، لأنّ شرح الصدر يعني أن يكون قلب الإنسان واسعاً كالبحر، لا تظهر فيه المؤثّرات السلبيّة، وإذا ظهرت سرعان ما تختفي وتزول، ويبقى البحر.

موسى يطلب شرح الصدر

شـرح الصـدر، كان هـو المطلب الأول للنبي الكريم موسـى عليه السـلام، حين أمره الله أن يبلّغ كلمته لفرعون ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾[طه: ٢٤]، فقال عليه السـلام: ﴿**رَبِّ اشْـرَحْ لِي صَدْرِي**﴾[طه: ٢٥]، فما الذي كان يخافه

موسى عليه السلام؟ ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾[طه:٤٥]، و﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ... وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[الشعراء: ١٢ـ١٤].

وهذا يعني أنّه عند طغيان الطرف الآخر الذي نتعامل معه، وتجاوزه الحدّ في أدب التعامل ومراعاة طبيعة العلاقة، وقيمة الإنسان، وعندما يفرط الطرف الآخر فيشتم ويسيء، فنحن بحاجة حينئذ أن يكون قلبنا كالبحر الذي يستقبل الماء الآسن، ويواجه الريح العنيفة، فلا يتأثّر، وإذا تأثّر سرعان ما يعود إلى حالته السابقة، ويبقى قويّاً قادراً على النهوض من جديد والاستمرار في طريقه.

طلاق ضيق الصدر

وعلى ما تقدّم، فإنَّ كثيراً من المشكلات التي تواجه الزوجين ـ لا سيّما حديثي العهد بالزواج ـ مردّها ضيق الصدر عند الطرفين، ومتى ما تحلّى الطرفان بِسَعة الصدر، فإن بمقدورهما أن يُكمِلا مشوار الحياة... وإن كبا أحدهما، أخذ الآخر بيده، لأنَّ المسألة عندهما ليست مسألة تحدٍّ ولا (كسر عظم)، وإنّما هو كيان توافقا على إنشائه، وتعاهدا على بذل الجهد لترسيخ أركانه، ولأنّهما يدركان أنّ العفو عن زلل الآخر لن يزيد مَنْ عفا إلا عزّاً.

كلمات من نور

عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ صبر على خُلق امرأة سيّئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر، أعطاه الله ثواب الشاكرين**».

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**ثلاث من النساء يرفع الله عنهنّ**

عذاب القبر ويكون محشرهنّ مع فاطمة بنت محمد عليها السلام: امرأة صبرت على غيرة زوجها، وامرأة صبرت على سوء خلق زوجها، وامرأة وهبت صداقَها لزوجها، يُعطي الله كلّ واحدة منهن ثواب ألف شهيد، ويكتب لكلِّ واحدة منهن عبادة سنة».

❀ ❀ ❀

هواجس العقاب الإلهي

عشـرات المنتديات على شـبكة الإنترنت طرحت السـؤال التالـي: كيف نميّز بين الابتلاءات التي تكون من باب العقاب، وبين تلك التي ليسـت عقاباً من الله سبحانه؟ والإجابة على هذا التساؤل بحاجة إلى مقدّمة.

مفهوم الابتلاء

الآية التالية تطرح المفهوم القرآني للابتلاء، قال الله عز اسمه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْـرَ الْحَـقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُـونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَـيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْـرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُـونَ فِي أَنْفُسِـهِمْ مَـا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُـونَ لَوْ كَانَ لَنَـا مِنَ الْأَمْرِ شَـيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّـهُ مَا فِي صُدُورِكُـمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِـي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّدُورِ﴾[آل عمـران:١٥٤]، فليـس الابتلاء هو فـي جميع مظاهره نقمةً وعذابـاً، بل قد يكون رحمة لأنَّ من خلاله:

١ ـ يبني الإنسان شخصيّته الصلبة من خلال المعاناة.

٢ ـ يكشـف للإنسـان طبيعة المشـاعر والأفـكار التي تعيش فـي داخله، وهل

هـي زائفـة أم مخلصة؟ وما الذي تعمَّق منها وما هو السـطحيّ فيها؟ وهل يمتلك الإنسـان صبـراً بمقـدار مـا يصـوّر لنفسـه أم أنـه جـزوع كسـائر الناس؟ وهكذا...

إذا امتلكنا قدرة التمييز

وبالعودة إلى السؤال، فلنفرض أنَّ بإمكان الإنسان أن يميّز بين العقاب وسواه، فلمـاذا نريـد أن نعـرف ذلك؟ هل إذا عرفنا أنّه عقاب فسـوف نسـتنفر كلّ طاقاتنا لإصلاح ما أفسدنا، أم سنعيش الهواجس، ويعترينا القلق الذي نتيه معه في دهاليز أفكارنا وحساباتنا التي لا تتناسب مع حسابات الله ورحمته، ومن ثم نعيش اليأس الذي قد يدمّر روحيّتنا أو يفتح لنا أبواب الاستغراق في الانحراف؟

وماذا لو عرفنا أنّه ليس من صنف العقاب، فهل سنسـترخي ونكمل حياتنا في غفلة عن أمرنا ونعود إلى سـيرتنا الأولى، أم سـيزرع ذلك فينا الأمل، وسـيُعطينا القوة للمزيد من طاعة الله ومسيرة العطاء والخير؟

الحقيقة أنّ الإنسـان ليس مطالباً بالتفريق والفرز، ليعيش بعد ذلك هاجسـاً قد لا يكـون لـه أصل، بـل مجرد أوهام وتخيـلات ﴿**وَمَا لَهُمْ بِـهِ مِنْ عِلْـمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّـنَّ وَإِنَّ الظَّـنَّ لا يُغْنِـي مِنَ الْحَقِّ شَـيْئاً**﴾[النجم:٢٨]. بل هـو مطالَب على كلِّ حال بالعمل، بما يُرضي الله والاسـتقامة، واحتساب الأجر والرضا بالقضاء، والصبـر على البلاء على كلِّ حال، سـواء عرِف أنّه من صنـف العقاب أم من غير ذلك. فالمهمّ أن يكون الإنسان في هذه المواقف كما قال الإمام علي عليه السلام لابن عمّه قثم بن العباس: «**ولا تكن عند النعمة بَطِراً ولا عند البأساء فشِلاً**».

هل فكّرت في الفرصة المؤاتية؟

بل إنّ بقاء الإنسان على قيد الحياة بعد نزول البلاء، معناه أنَّ الله يعطيه المزيد من الوقت ليُصلح من أمره، فلماذا الاستغراق في تعذيب النفس بالقلق واجترار ما مضى دون إصلاح شيء؟ فشاهد الحال أنَّ الذين يعيشون هاجس العقاب الإلهي عادة ما يعيشون القلق السلبيّ الذي لا يحرّك الإنسان نحو الإصلاح بل يُبقيه قيد الماضي البائس.

إنّ ما يُخاف منه، هو مثل الذي أصاب فرعون وأمثاله ممن لم يُمهَلوا ﴿**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[يونس: ٩١]. ولربّما إلى هذا أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «**وكلُّ بلاء دون النار عافية**».

تحويل البلاء إلى عطاء

وما أروع أن يحوّل المُبتلَى ما عاناه إلى مشروع يخدم من خلاله الآخرين الذين ابتُلوا بمثل ما ابتُلي به.. تقول معالِجة نفسية إنّها حضرت منذ سنوات مؤتمراً دوليّاً حيث يجلس الناس ليتبادلوا الخبرات والتّجارب، وفي جلسة تحدّث زوجان، وهما من روسيا، عن تجربتهما في ولادة طفلة أُصيبت بخلل في خلايا الدماغ بسبب خطأ طبّي، وقد قاما بالبحث في المراجع العلميّة وعلى الإنترنت لمعرفة حالة الطفل وتشخيصها بدقّة، والبحث والاتصال بأهمّ المراكز التي تعالج مثل هذه الحالات، وقاما بالاتصال بأحد هذه المراكز، وتلقَّيا منه برامج تدريبية وعلاجية تفيدهما في التعامل مع حالة طفلتهما وتطويره. ثم قاما بتطبيق هذه البرامج، مع الاتصال بالأسر التي لديها أطفال يعانون من نفس المشكلة عن طريق الإنترنت، وتبادل الخبرات معهم. ثم كوّن الزوجان ما يشبه الجمعيّة لتطوير

وتنميـة وزيـادة مهـارات الممرّضات العاملات فـي حقل رعاية ما بعـد الولادة؛ حتى يتمّ التقليل من احتماليّة حدوث هذا الخطأ ثانية مع أطفال آخرين، وفي هذا السبيل تحوّلت الأم من التدريس (مهنتها الأصلية) إلى التّمريض، وساعدها هذا في التفرّغ أكثر لفهم ورعاية حالة ابنتها، وإدارة هذه الجمعية الجديدة. وفي نهاية كلمتيهمـا قالا: نـودُّ أن نقدّم لكم ثمرة من ثمار هذا الجهد المضني الذي استمرّ لسـنوات، ودخلت طفلتهما تتهادى مثل البطّة الصغيرة بعد أن شُفيت بشكلٍ شبه تامّ من الحالة التي نتجت عن قصور ولادتها.

❁ ❁ ❁

صواريخ الشيخ شلتوت

«ترجع معرفتي بشيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت إلى سنة ٤٩...» بهذه الكلمات افتتح الشيخ محمد جواد مغنيّة رحمه الله (ت١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م) مقالاً حول لقائه بشيخ الأزهر أثناء سفره إلى القاهرة عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م، وكلاهما كانا من دُعاة الوحدة الإسلامية والتّقريب بين المذاهب والمتحمّسين في هذا الاتّجاه والعاملين لتحقيقه.. بل كانت جهود الشيخين وإخوانهم العلماء رحمهم الله آنذاك قائمة على احترام الآخر ومتبنّياته، والتّحاور معه بقلوبٍ مخلصة ونيّات صادقة، وبعيداً عن الحسابات السياسيّة والمصالح الفئويّة والنظرة الضيّقة.

قصة شراب الليمون

وفي ما كتبه المرحوم الشيخ مغنية حول ذلك اللّقاء: «اجتمعت به في داره، فأهّل ورحّب، واستقبلني أفضل استقبال، وحين قُدِّم لنا شراب الليمون، أبى إلاّ أن نشترك في كأسٍ واحد، فكان يشرب قليلاً، ويناولني الكأس، فأشرب من سؤره أيّ ما تبقّى من شُربه وجرى بيننا حديث الشيعة والتشيّع، فأثنى وأطنب، وقال في ما قال: إنّ الشيعة هم الذين أسّسوا الأزهر، وبقي أمداً غير قصير تُدرّس

فيـه علومهم ومذهبهم، ثم أعرض القائمون عليه عـن هذا المذهب، فحُرموا من نوره الساطع وفوائده الجمّة».

وخاطبـه كاتـب المقـال رحمـه اللـه: «إنَّ مكانتكم عنـد علماء الشـيعة كبيرة وسـامية، وقـد تظنّـون أنتم أو يظـنُّ غيركم أنّ السـبب هـو فتواكم بجـواز التعبّد بمذهـب التشـيّع... أجـل إنّ فتواكـم هذه تُنبـئ عن الجـرأة وعدم المبـالاة بِلَوم اللائميـن فـي الحقّ والعـدل، إنَّ علمـاء الشـيعة يحترمونكم لخدماتكـم الدينيّة ونُصْحكـم للإسـلام، وإنّهم مـع كلِّ مَنْ يناصر الدّين وينصح لـه كائناً مَنْ كان... يقولـون إنَّ لدى الغرب صواريـخ وقنابل ذرّية، وما دروا أنَّ لدينا نحن أهل الحقّ والإسلام قنابل وصواريخ أعظم أثراً وأشدُّ خطراً على الباطل، ولكنّها تحتاج إلى خبراء فنّيين كالشـيخ شـلتوت، تماماً كما يحتاج إطلاق الصواريخ وإلقاء القنابل إلى أهل الاختصاص».

المشكلة النفسية

إنَّ بعضاً من مشكلة المسلمين في ما اختلفوا فيه في شؤون العقيدة والفقه لا يعود إلى أسـاس علميّ بل نفسـيّ، ولذا، فإنّه إذا اقترب أحدهم فاكتشـف إمكانيّة صواب فكـر الآخر، حاول أن يلفّ ويدور ويتكلّف تهرّباً من لوازم الاعتراف بالخطأ وإضافة (نقطـة) إلـى رصيد مَـنْ يختلف معه! ما يجعلـه يقف عند مواقعه مـن دون أن يتحرّك خطوة واحدة باتجاه الآخر، وليبقى الرّفض المتبادل هو سيّد الموقف. وبتعبير المرجع الدينيّ السـيد محمد حسـين فضل الله رحمه الله: «نحن نتحرّك بروح عشائريّة في ما نتّفق عليه في كلِّ دائرة من الدوائر الإسـلامية، هناك عشـيرة السُّـنَّة وعشـيرة الشـيعة، المنطـق العشـائري هـو الذي يفرض نفسـه لا المذهـب الفكريّ السـنّي أو المذهب الفكريّ الشيعي، في ما يعيشه الوجدان الشيعيّ أو السنّيّ».

حساسيّة مفرطة

وهكذا يتحرّك كلُّ طرفٍ من موقع الحساسيّة المذهبيّة التي لا تطيق النّظر إلى وجهة النّظر الأخرى في المذهب الآخر بموضوعيّة، بسبب التأثّر بالرّواسب التي انعكست على الطريقة في إثارة المسائل العلميّة.. والأنكى في الأمر أنَّ القضيّة لا تنحصر في عامّة الناس الذين يتحرّكون بمشاعرهم لا بأفكارهم وعقولهم، بل تمتدّ لتشمل العلماء والباحثين والمفكّرين الذين يُفترض أن تكون المسألة لديهم مسألة مواجهة الفكر بفكرٍ آخر، لا مواجهة الانفعال بانفعال، لأنَّ العلماء لا ينفعلون.. بل يفكّرون.

وإذا استطاع العلماء أن يحصلوا على قاعدة فكرية تتقارب فيها الآراء، فإنّنا نستطيع أن نخطّط لأوضاع شعبيّة عامّة تتقارب فيها المواقف، باعتبار أنَّ العلماء في كثيرٍ من الأحايين هم الذين يحرّكون المسائل الخلافيّة في القضايا المذهبيّة لدى عامّة الناس... قال تعالى: ﴿**وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشّيطانَ يَنزَغُ بَيْنَهُم إِنَّ الشّيطان كَانَ لِلإِنسان عَدُوّاً مُبِيناً**﴾[الإسراء:٥٣].

❁ ❁ ❁

التأثير السياسيّ على الإصلاح الدينيّ

بعض دعوات الإصلاح الدينيّ تكون نابعة من الرّغبة في الإصلاح السياسيّ، وهذا ما يجعل العمليّة الأولى بعيدة عن التجرّد العلميّ، وخاضعة لضغوطات المتغيّرات السياسيّة ومعطيات ساحتها، مما قد يفقدها قيمتها العلميّة، لأنها معرّضة أن تصل إلى نتائج خاطئة، إمّا عن قصد، خدمةً للهدف الأساس، وهو الإصلاح السياسيّ، أو الوقوع دون وعي وإرادة تحت ضغط المؤثّر السياسيّ.

الإصلاح مطلب مُلحّ

ولا يفهم القارئ مما سبق أنّني لست مع العمليّة الإصلاحيّة، ومنها الإصلاح الدينيّ، بل أزعم أنّني من دُعاتِه بلا إفراط لأنَّ الإصلاح من عناوين حركة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، ويُفترض بعلماء الدّين والمبلّغين أن ينهضوا للإصلاح، وإن وجدوا الخلل في عقر دارهم. قال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود:٨٨]. وقال سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام: «**وإنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمّد صلّى الله عليه وآله**».

وعندما أتحدّث عن الإصلاح الدينيّ لا أعني به رفض المسلَّمات والتّنازل

عن المبادئ الثابتة بالحجّة البالغة، بل أعني إصلاح البيت الدينيّ، وتعديل الميل الحاصل بِفِعل البعض وباسم الدّين والمقدّس الدينيّ، وتصحيح الفهم (البشريّ) للدّين، إذا ما قام الدليل على وجود خطأ فيه أو خلل.

الطريق شائكة

ولا يظنَّن أحدٌ أنَّ طريق الإصلاح سالكة ومفروشة بالورود، اغتراراً بما يُنشر في الكتب وفي الصحافة وعبر وسائل الإعلام من تعظيم وتفخيم للشخصيّات الإصلاحيّة عبر التاريخ، فمأساة أمّتنا أنّها تبقى تحارب المصلحين ما داموا على قيد الحياة، فإذا ماتوا بكت عليهم وأقامت لهم الصروح العظيمة، وكأنّها لا تكتشف قيمة المصلحين إلاّ بعد أن (ترتاح) الأمة من إصلاحهم ودعواتهم حين تضمّ أضلاعُهم التراب!!

ومن الذين عانوا في هذا الطريق الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله فكتب حول مفردة منها، وتمثّلت في محاربة البعض لمجلّة (الأضواء) التي كان يُصدرها في النجف الأشرف: (حملة هائلة على ما أسمع يشنّها جملة من الطَلَبة ومَنْ يُسمّى بأهل العلم أو يُحسب عليهم، وهي حملة مخيفة وقد أدّت على ما قيل إلى تشويه سمعة الأضواء في نظر بعض أكابر الحوزة، حتّى كان جملة ممّن يسمّيهم المجتمع الآخوندي، مقدّسين أو وجهاء لا يتورّعون عن إلصاق التُّهم بالأضواء وكلُّ مَنْ يكتب فيها).

معاناة الإمام الخميني

وذات الأمر تكرّر مع الإمام الخميني رحمه الله حيث كتب: (وليس قليلاً خطر المتحجِّرين والمزيَّفين الحمقى.. وإنَّ الطعنة التي تلقّاها أبوكم العجوز من

هؤلاء المتحجِّرين لم يتلقَّ مثلها من ضغط وقساوة الآخرين.. وعندما قام شعار (فصْلُ الدّين عن السياسة) وأصبح الفقه في منطق الجَهَلَة غارقاً في الأحكام الفرديّة والعباديّة ولم يكن يُسمح للفقيه أن يخرج عن هذا الإطار ويتدخّل في السياسة وشؤون الحكم، عند ذاك أصبحت حماقة العالِم في طريقة معاشرة الناس فضيلة. وعلى زَعْم بعضهم يصبح العلماء موضع احترام وتكريم الناس حين تأخذ الحماقة وجوده. بينما يعتبرون العالِم الفاعل النّشط المهتمّ بالسياسة إنساناً مدسوساً.. أصبح تعلّم اللغات الأجنبيّة كفراً وتعلّم الفلسفة والعرفان ذنباً وشِركاً. وعندما شرب ابني الصغير المرحوم مصطفى الماء من إناء في المدرسة الفيضية، أخذوا ذلك الإناء وطهّروه بالماء لأنني كنت أدرّس الفلسفة. ولا يُخفى أنّه لو استمرّت هذه الأوضاع لأصبح وضع العلماء والحوزات كوضع كنائس القرون الوسطى).

التأثير السياسيّ

عودةٌ إلى أصل الموضوع.. فالإصلاحان الدينيّ والسياسيّ مطلوبان، إلا أنّه لا بدّ من التجرّد عند معالجتهما، وهو ما لم ينجح فيه بعض دعاة الإصلاح السياسيّ، فوقعوا في المحظور. ومثال ذلك ما نجده عند بعض دعاة الإصلاح السياسيّ في إيران، من قبيل الدكتور عبدالكريم سروش، فعندما أرادوا التعريض بمبدأ (ولاية الفقيه) انجرّوا إلى أصل مبدأ ولاية الأئمة عليهم السلام، وبما أنّ دعاة ولاية الفقيه يستندون في مقولتهم هذه إلى أنّها من متفرّعات ولاية المعصوم ومستمدّة عنها، فلا بدّ إذاً وفق هؤلاءلسلب الشرعيّة عنهم من إنكار الإمامة بالنصّ، وهذا ما انعكس في أطروحاتهم وآرائهم حول الإمامة بشكلٍ قد لا يكون مسبوقاً في السّاحة الفكريّة الشيعيّة.. وهكذا انجرَّ الأمر إلى مسألة الحدود والقصاص وتشريعات النصّ القرآنيّ..

إنَّ البحث العلميّ والإصلاح الدينيّ بحاجة إلى التجرّد ما أمكن، ولا سيّما عن ضغوطات العوامل والمصالح السياسيّة، لضمان أقرب النّتائج إلى الحقيقة، أو إلى ما يُمكن التعويل عليه وفق أسس الاستنباط والفهم البَشَريّ، بعيداً عن أيّة حسابات هنا أو هناك.

❀ ❀ ❀

النموذج السَّبئيّ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ* فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتِيهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ* وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ* فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[سبأ: ١٥-١٩].

إذا أضفنا إلى هذه الصورة المقدّمة في الآيات الوصف المقدّم في سورة النّمل حول ملكة سبأ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: ٢٣] فسنصل إلى أنَّ مملكة سبأ كانت تتمتّع بقوّة اقتصاديّة كبيرة، وتشهد حالة من التنمية والتقدّم ما يجعلها في رخاءٍ ورغد من العيش اعتماداً على ثلاثة عناصر: الزّراعة، التّجارة، الوحدة الوطنيّة.. فأين ذهب ذلك كلّه؟ وهل بإمكان السيل أن يقضي على كلِّ ذلك؟ ولماذا لم تنهض هذه المملكة من جديد؟ وإلى أيِّ مدى تنطبق مفردات هذه الصورة في مقدّماتها على الأوضاع التي نعيشها اليوم أو تُشرف عليها إن لم يتم تدارك الأوضاع؟

تحطّم السدّ

لماذا تهدّم ذلك السـدّ؟ أكان عذاباً نازلاً من الله عقوبةً لهم كما نزل على قوم لوط وصالح؟ أم كان نتيجةً طبيعيّة حين توفّرت المقدّمات التي كان بيد المجتمع السَّـبئيّ أن يتجنّبها؟ الاحتمال الثاني قائم تماماً كما هو الاحتمال الأول، فالظّلم والفساد الذي يؤدّي إلى انعدام أسس الإصلاح والتنمية، وبالتالي سيادة الرشاوى والتخـاذل في العطاء وعدم الإخلاص في العمل ووجود غير ذوي الكفاءات في المواقـع المهمّـة وتقديـم المصلحـة الفرديّة علـى الصالح العام وغيـر ذلك من عناوين الفسـاد، كلّهـا كفيلة بأن تقضي علـى أيّة حضارة أو مجتمع يشـهد تقدّماً على الصّعد المختلفة.

فئران تقضي على مملكة!

بعـضُ الأخبـار تتحدّث عـن فئران نخـرت في السـدّ فتهدّم وأغـرق المملكة ودمّرها، فإن صحّ ذلك، فهل يمكن أن تنخر سدّاً عظيماً في ليلة؟ لا بدّ أنَّ ذلك تمّ فـي مدّة طويلة، فلمَ لمْ يلحظ ذلك أحد؟ أليس هو التّراخي والإهمال والفسـاد؟ ففي مملكة كسـبأ تعتمد في الأسـاس على مشـروع ضخم وحيويّ كالسدّ، لا بدّ وأن تكون هناك جهة مسـؤولة عنه للصّيانة والمتابعة، فكيف لم تكتشـف تواجد الفئـران ودورها التخريبـيّ؟ وإلى أيِّ مـدى كان للتّراخي والفسـاد دورٌ في تلك الفاجعة؟ لربّما لو كانت هناك متابعة وتطوير وتنمية وإصلاح لما وقع ما وقع.

المباعدة بين الأسفار

العنصـر الثاني للتنمية في المملكة السـبئيّة كان عامل التّجارة التبادلية مع بلاد الشّام، وقد مَنَّ الله على أهل هذه المملكة أنّهم كانوا يعيشون الأمن في أسفارهم

لتتابع القرى والمناطق المأهولة، ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[سبأ: ١٩] فسلبوا أنفسهم هذه النعمة، وفقدوا جناح التّنمية الثاني في مملكتهم ومصدر قوّتهم الاقتصاديّة.. فهل كان مجرّد دعاء باللّسان، أم عملاً بالجوارح، فكأنَّ أعمالهم تلك كانت بمثابة الدّعاء بزوال النّعمة؟ بحيث إنّهم أقدموا على سلسلة من سنِّ القوانين والإجراءات التعسّفية التي تصبّ في مصلحة البعض، وتسلب مصالح الأطراف الأخرى فاضطرّت تلك الثانية إلى أن ترحل عن مواقعها التي كانت تحقّق الأمن في طريق السّفر التّجاري، أو أن تتحوّل إلى عناصر قلقة في المجتمع السبئيّ ذاته من خلال امتداداتها الطبيعية عبر الزّمن ضمن التركيبة الاجتماعية، أو أن تغدو عاملاً لسلب الأمن في إطار النِّزاعات بين الأطراف المختلفة، وتنتقل من موقع التّحالف إلى موقع العداء والسّلب وقَطْع الطريق.

الوحدة الوطنيّة

العامل الثالث يتضمّنه قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[سبأ: ١٩] وفي المثل (تفرّقوا أيادي سبأ) ونصوص تاريخيّة متعدّدة وكلّها تؤكّد أنَّ المجتمع السبئيّ في تركيبته كان تعدّدياً، ولذا اختزن القابليّة للتشرذم والنِّزاع، وهو ما انعكس على الوضع القائم بمجرّد أن فقدت المملكة عناصر استمرارها، فاحتكموا إلى انتماءاتهم المختلفة وتمزّقوا وانتهت دولتهم وأصبحوا من الضّعف بمكان حتى غدوا أحاديث ذلك الزّمان.. أمّا حين كانت مقومات الدولة القوّية حاضرة، كانوا وحدة واحدة وتحقّقت التنميّة، ولم تمنعهم انتماءاتهم القَبَليّة والعِرْقيّة المختلفة أن يعملوا معاً من أجل الصّالح العام.

إنَّ النتيجة الطبيعيّة للظّلم والفساد بصُوَرِه المختلفة، وتغليب الصّراعات ومنطق القوّة على منطق العقل، والتشرذم، والاحتكام إلى الشارع، واستعراض

العضلات، والتجرّؤ على المؤسّسات الدّولة، والتّأخير في تطبيق القانون، وعدم المساواة في تطبيقه، وتقديم الانتماء القبليّ والعرقيّ والفئويّ على الانتماء الوطنيّ، وتغييب مفاهيم الدولة الحضارية المتمدّنة لدى أفراد المجتمع، كلّ ذلك من شأنِه أن يقدّم النّموذج السبئيّ كصورة حاضرة وحتميّة لمستقبل أيّ وطن.

❁ ❁ ❁

الدين والمقدّس

بين الدّين والمقدّس ترابط حتميّ، فدائماً نجد الدّين ممزوجاً ببعض المقدّسات، فما هو مفهوم المقدّس؟ وما الفرق بين المقدّس والمحترم؟ وهل كل مقدّس عند النّاس هو مقدّس على نحو الحقيقة؟

مفهوم المقدّس

في الأغلب يُقصد من المقدَّس ما كان متعالياً عن النَّقد ممّا هو قطعيّ الوجود، حتّى لو لم نُدرك فلسفة الأمر وحقيقته. فالذّات الإلهيّة مقدّسة، وإن كنّا لا ندرك كُنْهها وحقيقتها، والله سبحانه غيب بالنِّسبة إلينا، إلاّ أنّ الدّليل القطعيّ قائم بوجوده. والقرآن الكريم كتاب مقدّس وهو فوق النّقد، ولا بدّ من التّسليم التامّ له، وإنْ لم نُدرك مداليل آياته المتشابهة، أو تعارض بعض ما فيه مع شيء من رؤانا. ويبدو أنَّ التّقديس فرع العصمة والتنزّه عن الباطل.

وعلى كلٍّ تقدير فإنّ وجود المقدّس كالقرآن مثلاً نعمة، لأنّه يجعلنا نشعر بالطّمأنينة والثّقة حين نأخذ منه المفاهيم والمعارف والتّشريعات وحِكم الحياة وأخبار الماضين وإنباءات المستقبل وغير ذلك.

تقديس واستفهام

هـذا لا يعنـي بالطّبع عدم الاسـتفهام والسـؤال والبحث والدّراسـة، فهذا حقٌّ مشـروع ضمـن الإطار العلمـيّ، بل هو ضـرورة، وأمرٌ منـدوب إليه فـي كثير من المواقـع، ولكـن لا بدّ فـي نهاية المطاف من التّسـليم، وإن لم يمكـن وفق حدود قدراتنا المعرفيّة أن نصل إلى الإجابة. فالذات الإلهية مقدّسة، ومع هذا تدور حول صفاته وذاته بحوث ودراسات، وتغيب عنّا الكثير من الحقائق حوله سبحانه.

الفرق بن المقدّس والمحترم

الاحترام والتّقدير لا يتعارضان مع النّقد، فكتاب نهج البلاغة محترم وموضع تقديـر وإجـلال، ولكنّه ليس فوق النّقد. نعم لو ثَبُـتَ أنّ كلّ نهج البلاغة هو كلام أمير المؤمنين حتماً ويقيناً لتغيّر الحال، ولكنّ الواقع أنّ الكلام منسوب إليه، وفيه مـا صـدر عنه، وفيه مـا لم يصدر، وهو محـلّ نقاش وترديد. علـى خلاف القرآن الكريم الذي نعتبره مقدَّساً، وفوق النّقد، لأنّنا على يقين أنّه منزّه عن الباطل، وأنّه من الجِلد إلى الجِلد، تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

وهكـذا، فـإنَّ عالِم الدّيـن محترم وموضـع تقدير وإجلال، ولكنّـه ليس فوق النّقـد، لأنّـه ليس معصوماً، بينمـا النّبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسـلم مقـدّس وفـوق النّقد، لأنّه منـزّه عن الباطل ومعصـوم، وإن كانـت دائرة عصمته تختلف عند المذاهب الإسـلامية بين مَنْ يعتبره معصوماً في كلِّ شـيء، حتى في مـا يخـصّ حياته اليوميّة وتعاملاته العاديّة، وبين مَـنْ يُضيِّق هذه الدّائرة بدرجات مختلفة. وعلى أساس ذلك سيكون تقديسه متفاوتاً بينها وفق تلك الرؤية.

ومن هنا يجب أن نكون دقيقين فيما نُدخله في دائرة المقدّسات، وكذلك فيما نُخرجه منها.

إلغاء المقدّسات

البعـض من الحداثويين يدعـون إلى نقد القرآن الكريم، فلا مقدّس عندهم إلاّ اللـه سـبحانه، وأما القـرآن ـ فبزعمهم ـ لا يعـدو أن يكون مصاغـاً ضمن الإطار الزَّمنـي لنزولـه، ولـذا فهـو يحمـل جملـة مـن المفاهيـم والتّشـريعات النّاقصة والخاطئـة المتناسـبة مع حقبـة زمنيّة ولّت.. والفعل البشـريّ فيه متحقّـق، تأليفاً وجَمْعـاً وحفظـاً. ولا يمكـن أن نوافقهم علـى ذلك، وهو خطأ فـادح، ومخالف لضرورات معتقد المسلمين.

توسعة دائرة المقدّسات

وفي المقابل هناك مَنْ يُدخل الكثير من الأمور والشخصيّات المحترمة ضمن دائرة المقدّسات، وهذا خطأ آخر. وقد لا يقع التّصريح بالتّقديس أحياناً لشخص أو أمـرٍ ما، بينما يكون من النّاحية العمليّة مقدّسـاً، حيـن نعتبره فوق النّقد، ونمنع النّاس من نقده. فكتاب صحيح البخاري عند إخواننا أهل السنّة يُعتبر كتاباً مقدّساً، لأنّـه فـوق النّقد، بل يصرِّح البعض بأنَّ نقده يؤدّي إلـى هدم الدّين، وهذا تقديس عمليّ، وإن لم يُصرَّح بقداسـة هذا الكتاب الذي يُعدّ جُهداً بشريّاً وفق رؤية معيّنة لعالِـم أراد أن يجمـع ما صحَّ عنده مـن أحاديث رُوِيت عن النّبـي صلى الله عليه وآله وسـلم، وقد يكون فيها الموضوع والضعيف. وقد وقع الحداثويون في ذات الخطـأ، وإن كانـوا يرفضون مبدأ التّقديس من أساسـه، فقد جعلوا لشـخصيّاتهم ومفكّريهـم وآرائهم قدسـيّة عمليّـة، حتّى إنّهـم يلاقون الرأي الآخر بالاسـتهزاء والاتهام بالتخلّف، ومعاداة الإنسانيّة والعقل والوعي.

إثقال كاهل الدّين

تَوْسِعة دائرة المقدّسات بصورتَيْها التصريحيّة والعمليّة، تُثقل كاهل الدّين والمتديّنين، لأنّها اجتهادات قد تُخطئ، وقد تكون مخالفة للدّين، وقد تكون مخالفة لليقين العلميّ، وقد تكون مناسبة لزمن دون آخر، أو لمجتمع دون آخر، ولكن صفة القداسة حينئذ ستمنع من نقدها أو مخالفتها. فنحن نقرُّ أنَّ مسألة التّطبير على سبيل المثال أحدثت خلافاً بين الفقهاء من حيث الفتوى بإباحتها أو تحريمها، ولكلٍّ فقيه رؤيته الخاصّة واجتهاده وخلفيّاته المؤثّرة في الحكم، ولكنَّ المشكلة أنَّ البعض أضفى صفة القداسة على الموضوع بحيث أصبح مجرّد الحديث عن المسألة، أو نَقْدها تهمة كبيرة. وهكذا الأمر في كثير من الممارسات التي يأتي بها المتديّنون وعلى اختلاف مذاهبهم وتشعّباتهم وفي التّفاصيل التاريخيّة لأحداث العصر الإسلامي والمسائل الفقهيّة.. إلخ القائمة.

الحساسية من نقد الغرب

وبنظرة أشمل، فإنَّ مِن المسلمين اليوم مَن أصبح حسّاساً من نقد الغربيّين لنا كمسلمين.. نعم لا نُنكر أنَّ هناك مَنْ يحقد على الإسلام والمسلمين، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ الجميع هكذا، أو أن نقابل أيّ نقد بهذه الحساسيّة، وإلاّ فإنّنا سنضفي على كلٍّ فهمنا البشري للدّين وتصرّفاتنا مهما كانت خاطئة، وتخلّفنا في مجالات كثيرة، صفة القدسيّة وحرمة الانتقاد. فلنستمع إلى ما يقولون بعقول واعية فلعلّ في كلمتهم حقّاً، وإلاّ غَدَونا كما قال تعالى في حقّ قوم النّبي نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[نوح: ٧].

❁ ❁ ❁

داروين بين ضلع آدم وطينته

قال تعالى في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.. فما معنى النّفس الواحدة؟ وما الذي تريد الآية أن تثيره في تصوّر الإنسان عن مبدئه ومعاده وعلاقاته الإنسانيّة؟

الله الخالق

أوّل ما تُثيره الآية بهذا الخصوص هو ربط الوجود الإنساني بالخالق جلّ وعلا، سواءً اعتبرنا أنّ أصل النّشوء تمّ من خليّة أحاديّة، تطوّرت عبر الزّمن المديد لتصل في نهاية المطاف، إلى آدم وحواء، لتبدأ معهما سلسلة الجنس البشريّ الآدمي، (كما يصرّ على ذلك أتباع نظرية داروين، في نظرية لم ترتقِ من حيث الأدلّة والشموليّة لتصبح حقيقة علميّة، بل تنبع من فرضيّات ظنّية تخضع للحدس والتّخمين، لأنّها لا تمنع الاحتمالات المضادّة، من خلال طبيعة التّجربة، أو من خلال الحلقات المفقودة في حركة التّجربة، ولذلك، فإنّها لا تمثّل أساساً علميّاً في مقابل الوحي الإلهي الذي يمثّل الحقيقة الدينيّة)، أو التزمنا بالنصّ القرآنيّ الذي يظهر منه أنّ خلق آدم لم يكن كذلك، وإنّما تمَّ بإرادة إلهية مباشرة دون تسلسل في مراتب الخلق ﴿إِنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ

مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾[آل عمران:٥٩].

ولهـذا الرّبط أَثَر مهمّ في الوجود الإنسـانيّ، إذ يجعله يعيش الشّـعور بالله في كلِّ نبضة من نبضات قلبه، وفي كلِّ خلجة من خلجات مشـاعره، وفي كلِّ حركة من حركات جسـمه، وفي كلِّ مظهـر للحياة، فيمتلئ إحساسـاً باللّه، كلّما تعاظم إحساسـه بالحياة، حيث يجد اللَّه في ذلك كلّه، لأنّها وُجدت به ومنه، واستمرّت من خلاله، وتستمرّ بقدرته.

النفس الواحدة

تفرّق المفسّرون في بيان المراد من هذا التّعبير القرآني إلى اتجاهات متباعدة، يمكن تقسيمها في البدء إلى قسمين:

١ ـ الحديـث فـي الآية عـن طبيعة الوجود الإنسـانيّ، وليس المقصـود من النَّفس الواحدة وزوجها خصوص آدم وحواء كَفَرْدَيْن بدأت معهما سـلالة الجنس البشـريّ الآدمـي، بل المقصود الجنس البشـري المُنقسـم إلـى ذكر وأنثـى، وكأنّ الآية تقول، خلقكم من جنسين، هما الذكر والأنثى، وبثّ من الجنسين رجالاً كثيراً ونساء.

٢ ـ الحديـث في الآيـة عن بداية الوجود الإنسـانيّ وطريقة اسـتمراره، فهناك مخلوق أوّل، خلقه اللَّه في البداية كجسـد، وأودع فيه روحاً من روحه. وفي هذا الجـوّ كانـت الزوجيّة طبيعة ذاتيّة في هذا المخلوق، ولا بدّ أن تكون الإشـارة في هذا الى آدم وحوّاء، على أساس أنّهما خَلْقُ اللَّه المباشر الذي كان القاعدة الأولى التـي انطلق منها التّكاثر، وهـو ما توحيه العبارة في الآية المباركـة: ﴿وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهـا وَبَـثَّ مِنْهُمـا رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً﴾[النسـاء: ١] فإنّ القضيـة لو كانت كما ذكـره أصحـاب الرأي الأوّل، لمـا كان هناك مكان لهذه الفقـرة التي تتحدّث عن عمليّة التّكاثر من موقع الوحدة.

ثم ينقسم أصحاب الرأي الثاني إلى أقسام، من بينها:

ضلع آدم

فأصحاب هذا الرأي يقولون، إنّ النَّفس الواحدة التي خُلق منها زوجها، تعني بدن آدم عليه السّلام، وكأنّ الآية تؤيّد ما جاء في التّوراة التي بيد اليهود اليوم، والأحاديث المبثوثة في كتب المسلمين من أنَّ حواء خُلقت من ضلع آدم، ثم يدخلون في حساب عدد أضلع المرأة وأضلع الرجل، ومحاولة إثارة بعض المفاهيم الاجتماعيّة والعاطفيّة المترتّبة على ذلك، تخفيفاً لوقع التعبير الدّارج أنَّ المرأة خُلِقت من ضلع (أعوج).

طينة آدم

ويذهب آخرون إلى أنَّ الآية واردة في مقام تسلسل الخلق، دون أن يتمّ الخلق من ضلع آدم، فإنّ الآية لا تدلّ عليه، بل يمكن أن يتّجه النّظر نحو الجزء المتبقّي من الطينة التي خُلق منها آدم. وقد ورد ذلك في حديث عن الإمام محمد الباقر عليه السّلام، فعن عمرو بن أبي المقدام، عن أبيه قال: سألتُ أبا جعفر عليه السّلام: من أيِّ شيء خَلَقَ اللَّه حوّاء؟ فقال عليه السّلام: **أي شيء يقولون هذا الخلق؟** قلت يقولون: إنّ اللَّه خَلَقَها من ضلع من أضلاع آدم. فقال: **كذبوا، أكان اللَّه يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟** فقلت: جعلت فداك، من أيِّ شيء خَلَقَها؟ فقال: **أخبرني أبي عن آبائه قال: قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم: إن اللَّه تبارك وتعالى قبض قبضة من طين، فخلطها بيمينه، وكلتا يديه يمين، فخلق منها آدم وفضلت فضلة من الطين، فخلق منها حوّاء.** (مع ملاحظة أنّ تعبير يمين الله وكلتا يديه يمين تعبير مجازي كنائي ولعلّ المراد منه القدرة الإلهية).

لماذا الجمع؟

ويضيفـون للتأكيـد على رأيهـم أنّ اللّه تحدّث في آيات أخـرى عن الموضوع بطريقة الجمع، مما يدلّ على أنّ الحديث يدور حول خَلْق الزوج من داخل نوعه، ومـن عنصـره الأصلي، لا من بعض أعضاء جسـده، كما في قولـه تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾[الروم: ٢١]، فهل يصحّ أن نقول إنّ الآية تذهب إلى أنّ كلّ زوجة خُلقت من ضلع من أضلع زوجها؟

رفض التمييز العنصريّ

ويمكن أن نستفيد من الآية أمراً آخر، فإرجاع أصل كلّ النّاس إلى نفس واحدة يعنـي التّوجيه نحو رفْض كلّ صور التمييز العنصري والعِرقي واللوني واللغوي، فإنّ هذه العناوين في حدِّ ذاتها لا تمثّل حقيقة الإنسانيّة، ولا تشـكّل قيمة حقيقيّة يمكن على أساسها التّمييز بين البشر، بل إنّه تنوّع يمثّل قدرة الله سبحانه، دون أن يمثّل امتيازاً ذاتيّاً لصاحبه.

❁ ❁ ❁

الفجور في الخصومة (١)

الخصومة أمر واقع في المجتمع الإنساني شئنا أم أبينا، وإن كانت في ذاتها أمراً مشيناً ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]، ويعيش الناس في علاقاتهم صُوَراً متعدّدة من الخصومة على المستوى الفرديّ والجماعيّ، ولو نظرنا إلى البغي كسبب من أسباب وقوع الخصومات، فسنجده حاضراً دائماً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص:٢٤]، حتى لو كان الذي يقود الناس ويهديهم ويحكم بينهم، هو رسول الله خير البشر صلّى الله عليه وآله وسلم، وقد دلّت الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة على وقوع الخصومات في المجتمع المسلم المعاصر للنّبي لأسباب عديدة. نعم، استطاع النبي أن ينزع فتيل كثير منها، بتهذيب النّفوس وتزكيتها وحسن تدبيره وسياسته، ولكنّنا نتحدّث عن بشر، بأنانيّتهم وحبّهم للدنيا وتعاضد وساوس شياطين الجنّ والإنس، وغير ذلك من العوامل التي تدفع إلى الخصومة.

إلاّ جنّة الخلد

ويبقى مجتمع أهل الجنّة مختلفاً، وبمعالجة ربّانية، كي لا تقع فيهم الخصومة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ، وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ

غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٥-٤٧].

رفع القلم

والأسوأ من الخصومة، الفجور فيها، بمعنى اعتقاد الإنسان برفع القلم عن كلِّ قول وتصرّف ورأي يصدر منه حيال خصمه، فكلّ شيء مباح، فلا تقوى ولا خُلُق ولا شرف يحكم التصرّفات، فالخصومة تُبيح له كشف الأسرار والإساءة إلى العِرض والدّين، واللّجوء إلى السَّحرة والمشعوذين، واستخدام الرّشوة وشهادة الزّور، والافتراء وتدبير المكائد، بما فيها تلك التي تُفضي إلى السجن أو القتل.

من علامات النِّفاق

وقد اعتبر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن ذلك من علامات النّفاق، بمعنى عدم استحكام الدّين في النفس، قال: «**أربع مَنْ كُنّ فيه فهو منافق، وإن كانت فيه واحدة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: مَنْ إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر**».

أشدُّ الحالات

من أشدّ وأسوأ أنواع الفجور في الخصومة تلك التي تقع بين الأقارب والأزواج، لأنَّ من المفترض أن تكون علاقة الرحم أو العلاقة الزوجيّة محفوفة بصُوَرِ الرّحمة والمحبّة والشفقة والتّعاطف، فكيف يكون الفجور هو عنوان الخصومة بينهم؟

وفي القرآن الكريم صور عديدة للفجور في الخصومة من أقرب الناس:

قال تعالى في قصة النبي يوسف عليه السلام الذي كان بمثابة الابن لزوجة

العزيز كما كانت تعشقه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢].

وقال بخصوص الطلاق: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾[البقرة:٢٣١] وصعوبة الأمر تأتي من نسيان العلاقة التي كانت تربطهما، وغلافها المودّة والرّحمة.

وحول احتمال وقوع ذلك من قِبَل أهل الزوج أو الزوجة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٣٢].

وهكذا الأمر في خصوص حضانة الأبناء التي قد تتحوّل إلى مادّة للانتقام وتصفية الحسابات: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾[البقرة:٢٣٣].

التّوجيه الربّاني

ويأتي التوجيه الربّاني متنوّعاً، فهو تارة أخلاقيّ، قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ﴾[البقرة: ٢٣١]، وأخرى شعوريّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[البقرة: ٢٣٧]، وأخيراً بالتّحذير من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة وقال سبحانه: ﴿عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣١].

محنة الشهيد الصدر

وكذلك، فإنَّ من أشدّ وأسوأ صور الفجور في الخصومة تلك التي تقع بين المتديّنين، إذ يُفترض بهم أن يترفّعوا عن الخصومة، فما بالنا بالفجور في الخصومة؟! وكم من عالِم أو إنسان مؤمن مخلص عامل في سبيل الله وقع ضحية الفجور في الخصومة. وقد عانى من ذلك المرجع الدينيّ والمفكّر الإسلامي الكبير الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله باتّهامه تارة بالعمالة، وأخرى بالخروج على ثوابت المذهب، وثالثة بالشخصانيّة وغير ذلك.

فعلى سبيل المثال وفي الفترة العصيبة التي رافقت حجزه ثم استشهاده، بعث أحدهم برسالة مضمونها كما يلي: (إننا نعلم أنّ الحجز مسرحية دبّرها لك البعثيون، وأنت تمثّل دور البطل فيها، والغرض منها إعطاؤك حجماً كبيراً في أوساط الأمّة، إنّنا نعلم أنّك عميل لأميركا، ولن تنفعك هذه المسرحيّة!!) يقول شاهد القضية: (لقد رأيت السيد الشهيد قابضاً على لحيته الكريمة وقد سالت دمعة ساخنة من عينيه وهو يقول: لقد شابت هذه من أجل الإسلام أَفأُتَّهم بالعمالة لأميركا وأنا في هذا الموقع؟!).

وقد اعتبر الشهيد الصدر أنّ الدنيا هي التي غرّت هؤلاء ولبّست عليهم الأمور، وهذا هو الفرق بين المؤمن الحقيقيّ عمّن سواه، قال: (ما هي هذه الدنيا التي نحبّها ونريد أن نُغرق أنفسنا فيها ونترك رضواناً من الله أكبر؟ نترك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا اعترض على خيال بشر. ليكن همّنا أن نعمل للآخرة، أن يعيش في قلوبنا حبّ الله سبحانه وتعالى بدلاً عن حبّ الدنيا.. أنا أُعلن لكم يا أبنائي بأنّي صمّمت على الشّهادة ولعلّ هذا آخر ما ستسمعونه منّي وإن أبواب الجنة قد فُتحت لتستقبل قوافل الشهداء، حتى يكتب الله لكم النّصر).

❁ ❁ ❁

الفجور في الخصومة (٢)

في المقالة السابقة تناولت الفجور في الخصومة من الناحية الاجتماعيّة، بين الأقارب وفي الوسط الإيماني، وسيكون حديثنا هذا حول الفجور في الخصومة في عالم السياسة والسياسيّين.

السياسة عند الإمام علي(ع)

عندما ندرس سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام فيما يتعلّق بالحكم، فإنّه يستوقفنا هذا الحوار بينه وبين ابن عباس.. قال الإمام وهو يخصف نعله: «**يا ابن عباس ما قيمة هذا النعل؟**» أجاب ابن عباس: لا قيمة له يا أمير المؤمنين. قال الإمام: «**والله لَهِيَ أحبُّ إليّ من إمرتكم إلا أن أُقيم حقّاً وأدفع باطلاً**».

وفي موقف آخر يُناجي الله قائلاً: «**اللهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ عن معالم دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك**».

ولذا نستطيع أن نقول بكلّ جرأة، إنّ مَنْ كانت نظرته إلى الحكم بهذا الشكل لا يُتوقّع منه أن يمارس الفجور في الخصومة السياسيّة، خاصّة وأنّه كان يصرّح

بأنَّ هذا الأمر في صوره المتعدّدة لن يصدر عنه. قال: «**ولولا كراهيّة الغَدْر لكنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدَرة فجَرة، وكلّ فجَرة كفَرة، ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة. والله ما أُستغفَل بالمكيدة، ولا أُستغمَز بالشديدة**» فلا أحد يستطيع أن يستغفلني بمكائده ولا أحد يستطيع أن ينتقص من شأني وقوّتي مهما كان التحدّي شديداً. وقال في موقف آخر: «**واويلاه، يمكرون بي ويعلمون أنّي بمكرهم عالِم، وأعرف منهم بوجوه المكر، ولكنّي أعلم أنّ المكر والخديعة في النّار، فأصبر على مكرهم، ولا أرتكب مثل ما ارتكبوه**».

عهد الإمام يقدّم التفاصيل

وأمّا عهد الإمام علي عليه السلام إلى واليه على مصر مالك الأشتر، فقد تضمّن تفصيلاً رائعاً لمعايير التّعامل عند الخصومة في عالم السّياسة، قال: «**وإنْ عقدتَ بينك وبين عدوّك عُقدة أو ألبسْتَه منك ذمّة، فحطّ عهدك بالوفاء، وارع ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيت، فإنّه ليس من فرائض الله شيء، النّاس أشدُّ عليه اجتماعاً مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ـ أيّ قبلهم ـ لِما استوبلوا من عواقب الغدر. فلا تغدرن بذمّتك، ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوّك ـ أي لا تخنه ولا تخدعه ـ فإنّه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقيّ. وقد جعل الله عهده وذمّته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ـ أي لا إفساد ولا خيانة ـ ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعوّلن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونَّك ضيقُ أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحقّ، فإنَّ صبرَك على ضيقِ أمرٍ ترجو انفراجه وفضلِ عاقبتِه خيرٌ من غدرٍ تخافُ تبعتَه، وأن تحيط بك من الله فيه طلبةً، فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك**» أيّ لا يغفرها الله لك.

نموذج مقابل

فـي إزاء هـذا النّموذج الراقي عند الإمام عليه السـلام، تُقابلنـا صور كثيرة في التاريخ الإسـلاميّ تُجسّـد الفجـور في الخصومة بأبشـع صورها، ومـن ذلك ما جـاء في كتاب (تاريخ الخلفاء) للسـيوطي: أنّ عبد الملك بن مروان حين خطب بالمدينة مركز المعارضة سـنة ٧٥هـ قال: (أما بعد، فلسـت الخليفة المستضعف ولسـت الخليفة المداهن ولا الخليفة المأفون. ألا وإنّ مَنْ كان قَبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويُطعِمون من هذه الأموال، ألا وإنّي أداوي أدواء هذه الأمة بالسّيف حتى تستقيم لي قناتكم. تكلّفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم؟! والله لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه!!). وفي مقال بعنوان (الاستحقاق السياسـيّ في تاريخ المسـلمين) للباحث المصري أحمد صبحي منصور، تعليق على الكلام السـابق: (والواضح في خطبة عبد الملك أنّه يحكم بشـرعيّة القوّة أو الاسـتحقاق، ويرفض اسـتخدام الوعظ الديني في نقده، ويهدّد الثائرين عليه من مدَّعـي التديّن بالسّـيف. ويرى أنَّ خصومه يطالبونه بالسـير على عهد النبوّة حين كان المهاجرون والأنصار يعيشـون في عدل، ولكن هذا العدل قد انتهى عصره، بدليل أنَّ أولئك الخصوم لا يعملون عمل المهاجرين والأنصار، لأنَّ العصر غير العصر. والواقع أنَّ الأمويّين أسـرفوا في اسـتعمال القوّة إلى درجة القسـوة دفاعاً عن زعمهم بشـرعيّتهم السياسـيّة وأحقّيتهم بالحكم كما يتصوّرون. فلم يتورّعوا عـن مذابح كربلاء واقتحام المدينة المنـوّرة وانتهاك حرمة الكعبة في خلافة يزيد بـن معاوية، كما لم يتـورّع وُلاتُهم من التطرّف بقتل الأبرياء لمجرّد الشّـبهة، كما كان يفعل زياد بن أبيه والحجاج وخالد القسري).

❁ ❁ ❁

غيِّر حياتك إلى الأحسن

في المكتبات اليوم عشرات الكتب التي يتحدّث فيها مؤلِّفوها عن إمكانيّة تغيير مسار الحياة إلى ما هو أحسن، لا سيّما لمن يعانون كثيراً نتيجة عوامل مختلفة، وأكثر هؤلاء المؤلّفين يذكرون أنَّ نجاحهم في تغيير مسار حياتهم، بشكلٍ كبير ودقيق هو الذي حفّزهم لتقديم خطوات النّجاح والتغيير إلى الآخرين في صورة كتاب أو أكثر.. وبعض هذه الكتب جدير بالمطالعة.

تجربة (بيني فيرجسون)

يُعاني قسم من الناس من الإحساس بفشلهم في عدم تحقيق طموحاتهم في الحياة، بل البعض يشعر بعدم تحقيق أقلّ تلك الطموحات، وإذا امتزج ذلك بالإحساس بأنَّ خريف العمر قد اقترب، تحوّل ذلك الإحساس إلى حالة من اليأس قد تؤدّي إلى الكآبة أو الاستسلام أمام أبسط التحدّيات في الحياة، معتبرين أنّ الظروف والناس الذين من حولهم هم السبب في كلِّ تلك التعاسة.

السيدة بيني فيرجسون مؤلّفة كتاب (تحويل حياتك) تنقل لنا تجربتها في هذا الإطار، تقول: (ذات يوم، بعد أن بلغت التاسعة والأربعين من العمر كنت في نزهة في الغابة مع كلابي، وسرحتُ في تأملاتي، فوجدت أنّني لم أحقّق أحلامي

التي رصدتها لحياتي حتّى الآن! فقد هَجَرَتني أمي ولم أزل في شهري الرابع، ثم أُرسلت للانضمام إلى إحدى المدارس الداخليّة في السابعة من عمري، حيث تعرّضت لأذى الزملاء وتنمّرهم، وشعرت بالوحدة الشديدة... وخُطبت في التاسعة عشرة، وتزوّجت عندما بلغت العشرين، وأنجبت ستة أطفال قبل أن أبلغ الثلاثين من عمري).

نقطة التحوّل

وهكذا تسترسل في ذِكْر فشلها في زيجاتها الثلاث، وإفلاسها وموت أحد أبنائها، ووصولها إلى شفير اليأس إلى أن قرّرت تغيير مسار حياتها وهي في التاسعة والأربعين، تقول: (حان الوقت كي أدرك أنَّ القاسم المشترك في زيجاتي الثلاث الفاشلة هو أنا. وهذا يعني شيئاً واحداً فقط: يجب أن يبدأ أيّ تغيير في حياتي بي شخصيّاً. منذ هذه اللحظة التزمت بأن أغيّر أفكاري، وأخلق حياة جديدة، وأحقّق نجاحاً وفقاً لشروطي وبمجهودي الذاتي. والآن أبلغ من العمر الواحدة والستين، وآلاف من الناس حوّلوا مسار حياتهم الشخصيّة والعمليّة بعد أن فهموا كيف حوّلتُ مسار حياتي). وتُعدّد بعد ذلك كيف غيّرت طبيعة حياتها الأسريّة إلى الأفضل، وانتقلت من حالة الإفلاس المالي إلى وضع جيّد، وأصبحت مديرة ناجحة لشركة تدريب واستشارات تشتمل على فريق عمل من ٢٥ فرداً، وغير ذلك.

الأمل الإيجابيّ

ما يستوقف القارئ في تجربة كتجربة السيدة فيرجسون هو حجم المشكلات التي واجهتها، والمرحلة العمرية التي قرّرت فيها بدء انطلاقة التحوّل في مسار حياتها إلى الأفضل. وفي ذلك رُوِيَ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «**لا تيأس من الزمان إذا منع**» و«**أعظم البلاء انقطاع الرّجاء**» و«**قتَلَ القنوطُ صاحبَه**».

ثم يأتي الإمام عليه السلام ليؤكّد أنّ لدى الإنسان قدرات كامنة تنتظر تفعيلها، وإرادة قويّة قادرة على تحدّي وتجاوز العوائق، فقد قال فيما رُوِي عنه: «**مَن بَذل جُهد طاقته بلَغ كُنه إرادته**» وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**ما ضَعُف بدن عمّا قويت عليه النيّة**».

العامل الغيبيّ

وبالإضافة إلى البُعد الشخصيّ المباشر في تحقّق التّغيير، فإنّنا كمسلمين نؤمن بأنَّ يد الغيب قد تتحرّك لتعمل حينئذ على إنجاح ذلك المسعى، بل نؤمن أنّ لا شيء يتحقّق ما لم تكن الإرادة الإلهيّة حاضرة، وهذا ما انعكس في كلمات النبي شعيب عليه السلام حيث قال: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود:٨٨]، وعن علي عليه السلام: «**التوفيق عناية الرحمن**». وهذه الحقيقة تبعث نحو السّعي الدائم لتقوية الارتباط بالله سبحانه، واستمداد العون منه، والتوكّل عليه.

حُسن النيّة

ويبرز في البين عامل النيّة كعنوان آخر مهمّ وحاسم في تحقّق ذلك التوفيق، فعن علي عليه السلام: «**على قدْر النيّة تكون من الله العطيّة**»، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إنّما قدَّر الله عون العباد على قدر نيّاتهم، فمن صحَّت نيّته، تمَّ عون الله له، ومن قصرت نيّته قصر عنه العون بقدر الذي قصّر**».

وللحياة الآخرة أيضاً

وإذا أردنا أن نوسّع الدائرة إلى ما يشمل البُعد الأخرويّ في حياة الإنسان المؤمن بالمبدأ والمعاد، فستواجهنا نصوص عديدة في هذا الإطار، تفتح آفاق

الأمـل الإيجابـيّ، إلـى اللحظات الأخيرة من الحياة، قال تعالـى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

الوقـت لم يفت لاتّخاذ القرار الحاسـم بالتّغيير.. ولكـن التّغيير لا يأتي بضربة حظّ، ولا يتحقّق من خلال الانتظار السـلبيّ، بل بالنيّة الحَسَـنة، والإرادة القويّة، والتّخطيط السليم، والتوكّل على الله.. وبيدك أن تغيّر حياتك إلى الأحسن.

❁ ❁ ❁

يا ليتني.. يابانيّ!!

تناولت منتديات الإنترنت خلال الفترة الماضية تحت عنوان (شعبٌ احترم نفسه قبل أن تحترمه النّاس) مظاهر في المجتمع الياباني الذي نُكب بالزلزال المدمّر الأخير، أثارت إعجاب الشباب من أصحاب المدوّنات ومستخدمي الإنترنت، وطالبت بالتدبّر فيها. عشرة عناوين ذُكرت في المقام:

١ـ الهدوء.. فلا منظر للامتعاض أو النّواح، فالحزن بحدّ ذاته يسمو.

٢ـ الاحترام.. طوابير مرتّبة للماء والمشتريات، لا كلمة جافّة ولا تصرّف جارح.

٣ـ القدرة.. معمار فائق الروعة، فالمباني تأرجحت ولم تسقط.

٤ـ الرّحمة..الناس اشتروا فقط ما يحتاجونه للفترةالحالية حتى يستطيع الكلّ الحصول على شيء.

٥ـ النّظام.. لا فوضى في المحال، ولا أصوات تزمير سيارات.

٦ـ التّضحية.. خمسون عاملاً بقوا في المفاعل النووي يضخّون ماء البحر فيه مع ارتفاع مستوى الخطورة.

٧ـ الرّفق.. المطاعم خفّضت أسعارها، أجهزة الصرف الآلي تُركت في حالها.

القويّ اهتمّ بالضعيف.

٨ ـ التدريب.. فالكبار والصغار، الكلّ عرف ماذا يفعل بالضبط.

٩ـ الإعلام.. أَظهروا تحكّماً رائعاً، لا مذيعين تافهين، فقط تقارير هادئة.

١٠ ـ الضّمير.. عندما انقطعت الكهرباء في المحال أعاد الناس ما بأيديهم إلى الرّفوف ومَشَوا بهدوء.

حيرة أميركيّة

هذا الإعجاب لم يقتصر على المدوّنين العرب، ولم يُثِر إعجاب شبابنا فقط، بل في أثناء بحثي في الإنترنت حول الموضوع باللغة الإنجليزية، وجدتُ مقالاً في صحيفة أميركية، يتحدّث فيها الكاتب عن حيرة علماء الاجتماع الأميركيين من انعدام ظاهرتَي النّهب، وهمجيّة التصرّف على أثر الزلزال. ويضيف الكاتب أنّه إذا عدنا بالذاكرة إلى إعصار كاترينا الذي ضرب نيوأورليانز، نجد أنّ كلّ النّظام الاجتماعي انهار، وأعمال النّهب والسّرقة والقتل أصبحت هي الأساس والمعيار. ثم تعرّض الكاتب الذي عاش في اليابان ١٠ سنوات إلى ذِكْر ثلاثة عناوين تحكم تصرّفات الشعب الياباني وتدفعهم ليظهروا بصورة مشرّفة:

١ـ (Giri): المسؤوليّة والعدالة والإخلاص والضمير.

٢ـ (Tatemae) رعاية التصرّفات الاجتماعية التي يتوقّعها المجتمع من الفرد.

٣ـ (Honne) الاحتفاظ بالمشاعر الحقيقية للأفراد ورغباتهم، ولا يتمّ إظهارها إلا للمقرّبين.

القيم الإسلامية

ويتساءل كثيرون: ألا نمتلك في الإسلام شيئاً من هذا القبيل؟ فقد طرح الإسلام ثلاثيّة القانون، الأخلاق، التّقوى، والتي يمكنها أن تنظِّم العلاقات وتصل بالسّلوك الإنساني إلى أرقى مستوياته:

١ـ القانون: كلّ الأمم متّفقة على ضرورة وجود القانون المنظّم للعلاقات في أبعادها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة. ويردف القانون نظام العقوبات والجزاءات في حال وقوع المخالفة. ومنظومة القوانين الإسلاميّة في كلّ المجالات السابقة حاضرة، وهي إن كانت في البداية في صورة آيات وأحاديث، ثم مسائل فقهيّة، إلاّ أنّها بجهود الباحثين تحوّلت إلى منظومة قانونيّة ذات مواد واضحة مفصّلة.

٢ـ الأخلاق: لم يكتفِ الإسلام بوضع القوانين ونظام العقوبات، بل اعتبر أنَّ ترسيخ الأخلاق الفطرية علاوة على التّربية الأخلاقيّة رديف لها، بل من المفترض أن تغدو عاملاً بديلاً للقانون إذا وجد ضعف في أجهزة التّنفيذ والقضاء، أو حالة من استشراء الفساد فيها، أو لصعوبة تحقيق حالة الرّقابة على تصرّفات كلّ فرد في كلِّ المواقع، أو لعدم وجود عقوبات رادعة. وهذا العامل يمثّل قوّة ذاتيّة بغضِّ النَّظر عن وجود القانون أو فعاليّته أو تفعيله من عدمه.

٣ـ التّقوى: والذي يمثّل صمّام الأمان، وحالة من الرّقابة الذاتيّة التي تعضد العاملَيْن الأوّلَيْن، أو تحلّ محلّهما لو فُقِدا. ولذا نلاحظ أنّ مجموعة من الآيات القرآنيّة لم تكتفِ بالتّشريع، بل تلحقه بذكر التّقوى، لأنَّ حضور الله الدائم في وعي الإنسان والإحساس بالرّقابة الإلهيّة يدفع نحو الاستقامة في السلوك.. ومن نماذج ذلك ما جاء في الآية القرآنية: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً**﴾[النساء:٩]، بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن حكم أكل مال اليتيم.

مكارم الأخلاق

إنَّ العناوين الثلاثة التي ذكرها الكاتب الأميركي كقوىً محرّكة للسلوك المهذّب عند الفرد الياباني حاضرة بوضوح في النّصوص الإسلاميّة، وتجاوزتها إلى تفاصيل ولا أروع، ويمكن للقارئ التمعّن في دعاء مكارم الأخلاق الوارد في الصحيفة السجّادية للإمام زين العابدين عليه السلام، ليكتشف جانبا من ذلك.

وتبقى مشكلة العالم الإسلامي بكلّ بساطة واختصار:

١ـ فيما يخصّ القانون: ما جاء في الحديث النبوي: «**أَيـمُ الله مالكم أيّها الناس.. إذا سرق فيكم الشريف تركتموه وإذا سرق الضعيف أقمتم عليه الحدّ؟**».

٢ـ فيما يخصّ الأخلاق: تحوّلت إلى عناوين نظرية يتغنّى بأمجادها، وليست قِيَماً راسخة في الأفراد، مع ازدواجيّة بين القول والعمل.

٣ـ التّقوى: تحوّلت عوامل تحقيق التّقوى إلى مظاهر سلوكيّة قشريّة، كالصّلاة والصيام والحجّ، وأفرغت من محتواها، وهي إن أريد تحقيقها لم تتعدَّ أن تكون ذات بُعد فرديّ، فهو يتّقي الله في أن يصلّي ويصوم ويحجّ، ولكن لا تقوى في التِّجارة وفي العهود والعلاقة الزوجيّة والأداء الوظيفي والشّهادة وحقوق النّاس.. إلخ.

ثورة شبابيّة

وبِودّي هنا أن أوجّه كلمة للشباب الذين يتغنّون برقيّ السلوك في اليابان، ويمتعضون من أوضاع عالمنا الإسلامي.. هل تكتفون بذلك؟ إذا كان العالم العربي شهد ويشهد ثورات شبابيّة عديدة على المستوى السياسيّ بكلّ تحدّياته، فبإمكانكم أن تثوروا أيضاً على الأوضاع الأخلاقيّة والقيميّة المتعارضة مع

السـلوك الإنسـانيّ الرّاقي. أَطلِقوا ثورتكم في هذا الاتّجاه، وقودوا حركة التّغيير إلـى الأفضـل، بتكتيكاتكم الذكيّـة، وانطلقوا عبـر الإنترنت والوسـائل الأخرى المتاحـة بأيديكم، وأنتـم قادرون على ذلـك إن كنتم صادقين فيمـا تحبّون، وإلاّ كنتم شركاء فيما نعيشه من أوضاع قيمية تمتعضون منها وتُكبّرون الآخرين لأنّهم تجاوزوها.

❀ ❀ ❀

المعجزة والكرامة

لا شــكّ بأنَّ على كلِّ مسـلم أن يؤمن بوجود المعجزة، فالقرآن الكريم حدّثنا عـن معاجز الأنبياء عليهم السـلام، بصورة لا تقبـل الترديد أو التأويل، ولكن هل الأصـل بالنسـبة إلى تصرّفـات الأنبياء عليهم السـلام هـو خَرْق قوانيـن الطبيعة والإتيان بالمعاجز، بحيث يكون انتظام الأمور وفق القوانين والسُّـنن الكونيّة هو المخالف لها؟ وما أثر الخلل في تفسـير ذلك على الإنسـان؟ وهل هناك فرق بين المعجزة والكرامة؟

كـي نصـل إلى الإجابـة على هذه التسـاؤلات علينـا أن ندقّـق أولاً في مفهوم المعجزة، ثم في الغرض من حدوث المعجزة وحدود ذلك.

تعريف المعجزة

عرّف العلامة الشـيخ جعفر السـبحاني فـي كتابه (محاضرات فـي الإلهيّات) المعجـزة بأنّها: (أمر خارق للعادة، مع دعوى النبوّة، ومقرون بالتحدّي، مع عدم المعارضة). وأضاف مفسّراً: (ثم إنّ الإتيان بما هو خارق للعادة لا يُسمّى معجزة إلا إذا كان مقترناً بدعوى النبوّة، وإذا تجرّد عنها وصدر من بعض أولياء الله تعالى يُسمّى «كرامة» وذلك كحضور الرّزق لمريم عليها السلام بلا سعي طبيعيّ).

إحضار عرش بلقيس

وأُضيف ـ بدوري مثالاً آخر على ما كان خَرْقاً للعادة دون أن يكون من المعاجز وفق التّعريف السابق، وذلك في مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾[النمل: ٤٠]. فهذا الأمر الذي صدر منه بإحضار عرش بلقيس من سبأ إلى القدس في أقلّ من لحظة، يحتمل احتمالَيْن:

١ـ أن يكون توظيفاً للقوانين العلميّة التي كان يعرفها ذلك المتحدّث، لا سيما بلحاظ قوله تعالى ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ وهو ما قد يعني أنّه كان يمتلك من المعرفة في القوانين العلميّة ما أمكنه من توظيفها لتحقيق المطلوب، على تقدير أنّ (علم الكتاب) هنا هو العلم بـ(كتاب التّكوين) أيّ (القوانين الإلهيّة المودعة في الطبيعة). وبهذا التّفسير لن يدخل الحدث في ضمن المعجزة أو الكرامة، إلاّ على قول بعض العلماء الذين يفسِّرون المعجزة بأنّها توظيف للقوانين الطبيعيّة بصورة يعجز عنها سائر الناس.

٢ـ أن يكون خرقاً للقوانين الطبيعيّة، ولكنّه لمّا لم يكن مقروناً بدعوى النبوّة، فلن نُدخله في إطار المعجزة، ويمكن أن نسمّي ذلك العمل (كرامة) على سبيل المثال.

وبالتالي فلا بدّ من التّفريق بين المعجزة بالمعنى العلميّ الاصطلاحيّ، وبين ما هو دارج على ألْسِنة البعض من حصول (معجزة) بشفاء فلان بواسطة النَّذْر أو بالدّعاء وما إلى ذلك.. لا بدّ من أنْ نكون دقيقين في مصطلحاتنا كي لا تختلط المفاهيم والحقائق ببعضها البعض فتُحْدِث عندنا ربكة على مستوى المفاهيم وعلى مستوى الأفعال.

معاجز الأنبياء

والمتمعّن في القرآن الكريم يُدرك أنَّ خرق القوانين بالمعاجز ليس هو الأصل في سلوك الأنبياء، ولذا قرّر المحقّقون أنّ المعجزة لا تأتي ابتداءً من عند الله، أو استجابةً لطلب أحد إلا في ظروف خاصة وشروط معيّنة، ولا بدّ من وجود مبرّرات قويّة لذلك.

ثم إنَّ المعجزة ليست ملازمةً للنبوّة، فقد بعث الله عدداً من الأنبياء دون أن يسدّدهم بالمعجزة، ولعلّنا نجد مثال ذلك في قوله تعالى على لسان قوم النّبي هود عليه السلام: ﴿**قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[هود:٥٣]، وأحياناً كان الأنبياء إذا ما طلب النّاس منهم معجزةً، لا يستجيب الله لطلبهم، بل يأتي الجواب: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**﴾[الإسراء:٩٣]. وهذه نقطة مهمَّة، وهي أنّ الإسلام يعلّمنا أنّ الحياة لا بدّ من أن تسير وفق منطق السّنن، منطق العلّة والمعلوليّة.

إيمان العقل والفطرة

لذلك، لم تكن الرِّسالات السماويّة تعتمد في دعوة الناس إلى الإيمان على المعاجز، بل كانت تعتمد على الاقتناع بالدليل الفطري أو العقليّ، لتكون لفطرتهم السليمة وعقولهم الفاعلة الدّور المهمّ في حركتهم في الحياة.

ولعلَّ إلى ذلك أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قال: «**وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وَأَنْهَار، وَسَهْل وَقَرَار، جَمَّ الأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّة سَمْرَاءَ، وَرَوْضَة خَضْرَاءَ، وَأَرْيَاف مُحْدِقَة، وَعِرَاص مُغْدِقَة، وَزُرُوع نَاضِرَة، وَطُرُق عَامِرَة، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ. وَلَوْ كَانَ الأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا،**

وَالأحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَة خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَة حَمْرَاءَ، وَنُور وَضِيَاء، لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ. وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَلْوَانِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلْ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ».

فيمكن أن نستفيد ضمنيّاً من هذه الفقرة من الخطبة القاصعة أنّ الله سبحانه لا يريد للناس أن يكون إيمانهم وهدايتهم من خلال ما هو خارق للعادة، بل من خلال القناعة القائمة على الدّليل الفطريّ أو العقليّ، بعد التخلّي عن الكبرياء الزائفة التي تدفعهم للعناد، فالتكبّر والعناد كلاهما من حُجُب العقل والفطرة.

خلود معجزة القرآن

ولو تمعّنا قليلاً في المعاجز سنجد أنّها مؤقتة، إلا القرآن الكريم، فهو المعجزة الخالدة، ولعلَّ ذلك يعود في جانب منه إلى أنّ تطوّر الحياة قائم من خلال العلم التّجريبي أو التأمّلي الذي يُنتجه العقل، والقرآن يعيد للعقل موقعه في حياة الإنسان، لذا فهناك تناغم بين الاثنين، بين طبيعة تطوّر الحياة، وبين ما يؤسّس له القرآن، فهو معجزة متناغمة مع العقل، بل ومعجزة ترسّخ دور العقل والعلم عند الإنسان المسلم.

العقليّة المعاجزيّة

إنَّ خطابنا الدينيّ غير الدّقيق أحياناً في استعمال المصطلحات وخَلْط المفاهيم وعدم التدقيق في النصوص، أدّى إلى خلق عقليّة يَسْهُل عليها قبول أيّة قصّة، أو أيّ نصّ يتضمّن ما يُدّعى أنّه معجزة أو كرامة. على الرَّغم من أنّ ذلك

خلاف الأصل في الحياة، وإلى هذا أشـار المحقّق الشـيخ محمد هادي الغروي حيث قال: (إنّ المعجزة خارقة للنّظام الطبيعيّ، فإذا أردت أن تثبت شـيئاً مختلفاً مـع النِّظـام الطبيعيّ، فمن المنطقـيّ أن تكون خطواتك هذه أكثر صعوبةً وعسـراً ممّـا لو أردت إثبات شـيء غير خارق منسـجم مع الطبيعـة. إذاً، المعجز لا يثبت إلاّ بدليـل قطعـيّ أو مقارب للقطعـيّ، أيّ المتواترات أو ما يمكـن الاعتماد عليه من النصوص المسـتفيضة. وهذا معناه أنّه لا يمكن اعتماد في مثل المعاجز على أخبار الآحاد). هذا التسـاهل يؤدّي إلى تشـويش في المفاهيم وبالتالي يؤدّي إلى التأثير على سلوكيّات الإنسان... وليس توجّه البعض عند المرض مثلاً إلى بعض الدجّالين ممّن يبيعون الوهم إلا من نتائج ذلك.

الخلاصة

١ـ نحـن نؤمـن بالمعاجز بالمعنـى الاصطلاحي، ونعتبرها حالة اسـتثنائيّة في دورة الحياة وفي تصرّفات الأنبياء.

٢ـ الرّسـالات السـماويّة تعتمـد فـي دعـوة الناس إلـى الإيمـان على الاقتناع بالدّليل الفطريّ أو العقليّ.

٣ـ المعجـزة خلاف الأصل، وما هو كذلك فإنّه سـيحتاج إلـى دليل قطعيّ أو مقارب له.

٤ـ التساهل في قبول أخبار المعاجز والكرامات يؤدّي إلى خلق عقليّة تختلط فيها المفاهيم، وتؤثّر سلباً على السلوك.

❁ ❁ ❁

وادي العِظام

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ، وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا... فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ... فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ...﴾[البقرة:٢٤٣-٢٥١].

لا تبدو هذه الآيات القرآنيّة في الوهلة الأولى ذات صلة ببعضها البعض، إلاّ أنَّ البحث عن أصل قصّة أولئك القوم الذين أماتهم الله ثم أحياهم قد تُرشدنا إلى الرّابط بينها، وإلى الرِّسالة الأساسيّة التي تريد أن توصلها الآيات السابقة في مجموعها إلى المسلمين.

النبي حزقيال

احتكاك أهل يثرب ومن ثمّ المهاجرين باليهود جعل عندهم مخزوناً معرفيّاً ببعض ما في كتبهم من قصص، ولعلَّ القرآن الكريم في الآيات السابقة كما في موارد أخرى عديدة يستحثّ هذا المخزون المعرفي الذي تختلط فيه الحقائق بشيء من الوَضْع والتّحريف ليقدّمه خالصاً منها، وليثير من خلاله مفهوماً حياتيّاً عمليّاً.. ولربّما إلى هذا تشير الآية: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[البقرة: ٢٥٢].

ففي سفر حزقيال قصّة هذا النبي حين خرج في فترة السَّبْي البابليّ إلى وادٍ مليء بالعظام اليابسة لأناس قد ماتوا: (فأخرجني بروح الربّ وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنة عظاماً.. فقال لي: يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت: يا سيّد الرب، أنت تعلم. فقال لي: تنبّأ على هذه العظام.. فتنبّأت كما أمرت، وبينما أنا أتنبّأ كان صوت، وإذا رعش، فتقاربت العظام كلّ عظم إلى عظمة، ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها، وبسط الجلد عليها من فوق.. فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً).

الهدف من الموقف

ثم يتّجه هذا الموقف نحو تقديم الفكرة، فبلحاظ حالة السّبي والتّشرذم وتكالب الأمم على بني إسرائيل وضعفهم الذي جعلهم يعيشون حالة من اليأس في الخلاص ممّا هم فيه، جاء التأكيد الإلهي أنّ الجماعة الميّتة معنويّاً يمكنها أن تعود إلى الحياة من جديد تماماً كما عادت تلك العظام: (ثم قال لي: يا ابن آدم، هذه العظام هي كلّ بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا. لذلك تنبّأ وقل لهم: هكذا قال السيّد الرب، هاأنذا أفتح قبوركم

وأصعّدكم من قبوركم يا شعبي.. وأجعل روحي فيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم، فتعلمون أنّي أنا الرب تكلّمت وأفعل).

ثم يستمرّ الحوار مع النبي حزقيال ليذكّره بقصة النبي داود الذي جعله الله مَلِكاً على بني إسرائيل واستطاع أن ينقلهم من حالة التشرذم إلى التوحّد، ومن حالة الضّعف إلى مملكة قويّة ذات نفوذ وسلطان عظيمَيْن: (وداود عبدي يكون ملكاً عليهم ويكون لجميعهم راعٍ واحد، فيسلكون في أحكامي، ويحفظون فرائضي ويعملون بها) الإصحاح:٣٧.

عودة إلى الآيات

وبالعودة إلى الآيات من سورة البقرة سنجد أنّها مترابطة بذات الصِّلة في ما جاء في سفر حزقيال، فالمسلمون كانوا يعيشون حالة من الضعف المعنويّ بعد هِجْرتهم من مكة، وشعورهم بتكالب المشركين عليهم وحصارهم اقتصاديّاً واجتماعيّاً، من خلال تحرّكات قريش ضدّهم في تحالفاتها مع القبائل المحيطة بالمدينة وبالطرق التّجارية، فجاءت الآيات لتُثير ذلك المخزون المعرفيّ حول قصة حزقيال النبي، لتقول لهم: تذكّروا تلك القصة التي تعرفونها ودلالاتها في الإحياء المعنويّ للمجتمع اليائس أو الضعيف، فهي تنطبق عليكم أنتم أيضاً، ولذا جاء الأمر بالقتال وعدم التردّد فيه: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وضرورة تقديم التّضحيات: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾، ثم ذكّرتهم الآيات بقصة طالوت وجالوت والنبي داود عليه السلام في صورتها الحقيقيّة كما أمر الله حزقيال بأن يذكّر قومه بها، ليكون مثالاً عمليّاً من التاريخ على الأمّة التي تعيش الضّعف، فتنتشل نفسها باللّجوء إلى الله سبحانه واستمداد القوّة منه، ومن ثمّ الأخْذ بأسباب القوّة ومواجهة الظّلم وتقديم التّضحيات في

هذا الطريق لتحقيق النَّصر في نهاية الطريق.. إنّها سُنّة الله في الأمم وقوانينه التي لا تتغيّر، بل تنتظر مَنْ يحقّق الشّـروط والمقدّمات، لتقدّم له النّتائج التي ينتظرها ويأمل في تحقيقها.. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾[المعارج:٦-٧].

❁ ❁ ❁

سُكْرُ الشباب

عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أَبْعَدُ إِفَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخمُورِ**».

المغرور في الأصل هو المخدوع، الذي خدع نفسه نتيجة بعض العوامل الإيجابيّة التي يمتلكها، كالجمال الجسديّ، أو القوّة الجسمانيّة، أو النَّجاحات التي يحقّقها على المستوى العلميّ أو الإعلاميّ أو المهنيّ، أو عناصر القوّة التي نالها كالغِنى الماليّ أو الامتداد الجماهيريّ وهكذا.. فيغفل وينسى حقيقة أنَّ المسألة نسبيّة ومؤقّتة وقابلة للزَّوال، وأنَّ حكمة التّفاوت بين النّاس إنّما هي من أجل أن تتكامل الحياة من خلال ذلك، كما قال سبحانه: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخذ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً**﴾[الزخرف:٣٢]، لا للتّعالي على بعضهم البعض، كي يجرّه ذلك إلى الترفّع على الآخرين والتكبر عليهم، سواء في المعاملة أو في قبول النّصح والمشورة أو غير ذلك، وكما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حَجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ**».

غرور مُستورد

وقد يكون الغرور ناتجاً عن خداع الآخرين له من المنافقين والمتزلّفين والمنتفعين الذين ينفخون فيه روح العجب لينخدع وبتعبير الإمام علي(ع) يدخل في حالة من السُّكر الذي يعطّل عمل العقل فيُصاب بالغرور ومن ثمّ بالكِبر.

سُكْرُ الشّباب

ولعلّ المقوّمات التي يتمتّع بها الشباب في مرحلتهم العمريّة، تجعلهم أكثر عرضة عن أفراد سائر المراحل العمريّة للإصابة بهذا المرض النّفسي المدمّر على مستوى دين الشّاب، وعلى مستوى العلاقات الاجتماعيّة، وكذلك على مستقبله المعيشيّ في مجال العلم والعمل والمهنة.

ولذا نجد هذه الحالة من التمرّد والنّظرة الفوقيّة من الشباب للوالدين مثلاً عند توجيههم ونُصْحهم، فالغرور يؤدّي دوره السلبيّ في تحقير طريقة تفكير الوالدين والأولويّات التي يوجّهون أبناءهم نحوها، وفي تقديمهم لخبراتهم الحياتيّة لأبنائهم حرصاً عليهم.

تقديم الخبرات

ويُبيّن أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن الهدف من تقديم خبراته: «فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا ربّما أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ».

فمنطلق الوالدين في تقديم النّصح ما قاله علي عليه السلام في نفس الوصيّة:

«وَوَجَدْتُـكَ بَعْضي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَـيْئاً لَـوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَـوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِـي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِـي».. فليس منطلق الأمر غالبـاً هـو الرّغبة في السـيطرة والتحكّم، ولكنّ سُـكْر الشـباب يمثّل حجاباً يمنعهم من إدراك هذه الحقيقة أو قبولها.

العقل دواء الغرور

وأهمّ ما يمكن أن يسـاعد الشـاب في مواجهة الغرور هو تنمية دور العقل في الجانب السلوكيّ وتقييم الشخصيّة، وقد رُوِي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لاَ يُلْقَى الْعَاقِلُ مَغْرُوراً**».. فالعلاقة بين العقل والغرور عكسـيّة، فكلّما أمعن الشاب في التفكير في تلك النّصائح والتوجيهات، كلّما أدرك منطلقها ونتائج الأخْذ بها، وتجنَّب بالتالي الانخداع بما تُصوّر له نفسـه، أو بما يصوّره له الآخرون من أمور ليسـت واقعيّة، أو متضخّمة الصورة.. وفي المقابل كلّما عطّل دور العقل غروراً وتمرّداً، كلّما كان عرضة للوقوع في شِراك نفسه أو شِراك الآخرين.

❁ ❁ ❁

الأحلام والرؤى (١)

يفرّق البعض بين الأحلام والرّؤى، انطلاقاً ممّا رُوِي عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشّيطانِ**». ولربّما قيل بأنّه يمكن إطلاق الرؤيا أيضاً على ما هو باطل، بدليل ما رُوِي أيضاً عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**الرُّؤْيَا ثَلاثٌ: فَبُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَحَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفٌ مِنَ الشّيطانِ**».

إلاّ أنّ الذي يهمّنا هنا هو معرفة الموقف العمليّ من الرّؤى والأحلام.. ولا بدّ في البداية من التأكيد على أنّ القضية ما دامت ذات علاقة بالغيب، فإنّه لا يمكن أن نفهمها بصورة كاملة ودقيقة، وما نقوله بالتالي يمثّل محاولة للوصول إلى مقاربة لفهم الأمر، وما يهمّنا أكثر هو معرفة الموقف العمليّ من هذه القضيّة.

أهمّية الموضوع

أمّا الذي يدفعنا للحديث عن هذا الموضوع، فهو أولاً الإفراط عند كثير من الناس في الاهتمام بالرّؤى والأحلام، وترتيب الآثار عليها، سواء على المستوى علاقتهم بالدّين أو علاقاتهم الاجتماعيّة أو تصرّفاتهم الشخصيّة.

وثانياً: الدّخول على الخطّ من قبل بعض المدّعين للعلم، والاطّلاع على الغيبيّات، ومدّعي القدرة على تعبير الرّؤى بحيث يوهِمون الناس من خلال

كلامهم أنّ ما يقولونه يمثّل الحقيقة، ولربّما لدوافع مادّية بحتة، لينطلق الناس في تطبيق ما يقولونه لهم ممّا قد يفسد عليهم حياتهم الشخصيّة أو علاقاتهم أو دينهم.

كلّ هذا في مقابل سكوت كثير من أهل العلم عن هذا الأمر.. وللشيخ المفيد رحمه الله (ت ٤٦٠ هـ) كلمة في الصميم في هذا الخصوص، قال: (إنّ الكلام في باب رؤيا المنامات عزيز، وتهاون أهل النّظر به شديد، والبليّة بذلك عظيمة، وصدق القول فيه أصل جليل).

مصدر الرؤى والأحلام

ولكي نعرف الموقف العملي من الأحلام والرّؤى لا بد أولاً من مقاربة لفهم حقيقتها ومصدرها، وذلك من خلال النقاط التالية:

١ـ الرّؤى الحقيقية قد تتحقّق للأنبياء كما في رؤيا النّبي إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات:١٠٢]، وكذلك رؤيا نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[الفتح:٢٧].. كما قد تتحقّق أيضاً لعامّة الناس كما حدث للسجينَيْن مع النبي يوسف عليه السلام، وكذلك للملك المعاصر له.

إلا أنّها عندما تكون نحواً من الوحي أو الإلهام للنّبي فلا بدّ أن تقترن بما يعزّز ذلك عنده، إذ لا مجال للخطأ في تبليغ أمر، سواء على نحو الوظيفة الشرعية كما في ذبح إسماعيل(ع)، ونلاحظ قول النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ

مَا تُؤْمَرُ﴾ فقد كانت الرّؤيا نوعاً من الأمر الإلهي دون أيّ تردّد أو شك.. أو على نحو الإخبار بأمر مستقبليّ كما في الإخبار بأداء عمرة القضاء في آية سورة الفتح.

أما بالنّسبة إلى عامّة الناس فلا سبيل للتيقّن من صدقيّة الرّؤيا وتعبيرها. ولذا لا سبيل لغير مَن عصمه الله سبحانه أن يجزم بتكليفه بوظيفة شرعيّة وفق ما رآه في المنام، أو أن يجزم بأنّ ما رآه في المنام هو إخبار عن أمور غيبيّة أو مستقبليّة حتميّة الوقوع.

أقسام الرّؤى والأحلام

٢ـ قسّمت بعض النّصوص الدينيّة الإسلاميّة ما يراه الإنسان في منامه إلى قسمين، كما في الخبر المرويّ عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الزمر: ٤٢]، أنه قال: «**ما مِن عبدٍ ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سببٌ كشعاع الشمس، فإذا أذن الله في قبض الأرواح أجابت الرّوحُ النفسَ، وإن أذن الله في ردِّ الروح أجابت النّفس الرّوح** وهو قوله سبحانه: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾، **فمهما رأت في ملكوت السموات فهو ممّا له تأويل، وما رأته بين السماء والأرض فهو ممّا يخيّله الشّيطان ولا تأويل له**».

وقريب من ذلك ما رواه السيوطي في الدرّ المنثور عمّا أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أنّ عمر بن الخطاب قال: (العجب من رؤيا الرجل أنّه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على باله فتكون رؤياه كأَخْذٍ باليد، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً!) فاستشهد الإمام علي بنفس الآية ثم قال: «**فالله**

يتوفّى الأنفس كلّها، فمّا رأت وهي عنده في السّماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أُرسِلت إلى أجسادها تلقَّتها الشّياطين في الهواء فكذَّبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها. فعجب عمر من قوله».

ومن الأحاديث ما يقسّمها إلى ثلاثة أقسام كتلك التي نقلتها في البداية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**الرُّؤْيَا ثَلاثٌ: فَبُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَحَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفٌ مِنَ الشّيطانِ**». وقد أشارت العديد من الأخبار إلى أنّ من أسباب الرؤيا الكاذبة هو حديث النّفس الذي يضغط على الإنسان باتّجاه خلق الصور الخياليّة التي ترتبط بما يحدِّث الإنسان به نفسه.

كيف نميّز بينها؟

ممّا سبق اتّضح أنّ ما يمكن الاعتماد عليه من الرّؤى والأحلام مبدئيّاً هو قسم واحد فقط من الثلاثة، أي إنّ الدّائرة المقبولة من الرّؤى والأحلام قد ضاقت بنسبة الثلث.. ولكنّنا مع هذا سنواجه مشكلتين:

الأولى: كيف نميّز أنّ ما رأيناه هو من القسم الصادق أم من القسمين الآخرين؟

الثانية: نفس هذا القسم الصادق ينقسم إلى أقسام تعقّد الأمور أكثر، قال العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان مع الاختصار: (المنامات الحقّة تنقسم انقساماً أوّلياً إلى منامات صريحة لم تتصرّف فيها نفس النائم فتنطبق على ما لها من التأويل من غير مؤنة، ومنامات غير صريحة تصرَّفت فيها النّفس من جهة الحكاية بالأمثال والانتقال من معنى إلى ما يناسبه أو يضادّه، وهذه هي التي تحتاج إلى التعبير بردِّها إلى الأصل الذي هو المشهود الأوّلي للنّفس.. ثم هذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين أحدهما ما تتصرّف فيه النّفس بالحكاية فتنتقل من الشيء إلى ما يناسبه أو يضادّه.. بحيث لا يعسر ردّه إلى أصله.. وثانيهما ما

تتصرّف فيه النّفس بحيث يتعذّر أو يتعسّـر للمعبّر أن يردّه إلى الأصل المشهود). ويستشـهد العلاّمة برؤيا السـجينَيْن والملك فقال: (نجد أنّ يوسـف عليه السلام يعبِّر عن رؤيا الملك بتعبير لا تجد الأذهان بينه وبين الرؤيا مناسبة).

وبالتالـي كيـف يمكـن بعد هـذا البيان أن يثق أحدنـا بمـا رآه، أو بتعبير ما رآه، سـواء أكان هو المعبِّر أم غيره؟ وإلى هذا أشـار الإمام جعفر الصادق عليه السلام مخاطبـاً المفضّـل بن عمر حيث قال: «**فكِّر يا مفضَّل فـي الأحلام كيف دبّر الأمر فيهـا فمزج صادقهـا بكاذبها، فإنّها لو كانت كلّها تصدّق لكان النّاس كلّهم أنبياء، ولـو كانـت كلّها تكذب، لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنى له، فصارت تصـدق أحيانـاً فينتفع بها النـاس في مصلحة يهتـدي لها، أو مضرّة يتحـذّر منها، وتكذب كثيراً لئلاّ يُعتمد عليها كل الاعتماد**»...

الأحلام والرؤى (٢)

في المقالة السابقة، دار الحديث حول الموقف العمليّ من الرّؤى والأحلام، وتوصّلنا إلى النّتائج التالية:

١ـ إنّها تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة بحسب المصدر: إمّا رؤيا حقّ، أو تسويلات شيطانيّة، أو حديث النّفس.

٢ـ إنّ التمييز بين هذه الأقسام صعب، وإنّ مَن عصمه الله سبحانه هو وحده هو الذي لا بدّ أن يقترن الإلهام الإلهيّ له في المنام بما يتيقّن من خلاله إنّها رؤيا حقّ، سواء أكان ما رآه تكليفاً أو إخباراً عن غيب.

٣ـ إنّ الرؤيا الحقّة تنقسم بدورها إلى ما تكون واضحة، ورؤيا تعبيرها سهل، ورؤيا معقّدة التعبير، ولا يمتلك القدرة على تعبير هذا القسم الأخير إلاّ القليل كالنّبي يوسف عليه السلام.

كلُّ هذا يدفعنا إلى عدم إعطاء كلّ هذه الأهمّية التي يوليها الناس للمنامات، فتؤثّر في سلوكهم الشخصيّ أو علاقاتهم الاجتماعيّة أو شؤونهم الدينيّة.

رؤية النبيّ في المنام

إلى أيّ مدى يمكن الاعتماد على رؤية النّبي أو الإمام في المنام، والالتزام بمضمون تلك الرؤيا، سواء أكانت على سبيل بيان حكم شرعيّ أو الأمر بفعل شيء أو ترك شيء، أو بالإخبار عن المغيّبات والمستقبليّات، لا سيّما بلحاظ المرويّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من رآني في نومه فقد رآني، لأن الشّيطان لا يتمثل في صورتي**»؟

الإجابة على ذلك تكون وفق النّقاط التّالية:

١ـ علّق السيد الشريف المرتضى على الخبر: (هذا خبر واحد ضعيف من أضعف أخبار الآحاد، ولا معوَّل على مثل ذلك).

٢ـ اعتبر الشيخ المفيد ـ وهو من أعلام القرن الخامس الهجري ـ أنّ ادّعاء أتباع المذاهب المختلفة صحّة ما يتبنّونه بناء على رؤيا رآها شخص من أتباع هذا المذهب يدعوه فيها النّبي إلى اتّباع فلان، ثم رؤيا شخص آخر من مذهب آخر للنّبي يأمره بخلاف ذلك، هو في حدّ ذاته دليل على عدم صحّة التعويل على الرؤى، وبتعبيره فإنّ: (أولى الأشياء أن يكون الحقّ منهما ما ثبت بالدليل في اليقظة على صحّة ما تضمّنه، والباطل ما أوضحت الحجّة عن فساده وبطلانه).

٣ـ نهى الأئمّة عليهم السلام عن الاعتماد على الرؤى في الإخبار بالغيب والمستقبل على نحو اليقين، فعن أبي بكر بن عياش أنّه قال: (كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فجاءه رجل فقال: رأيتك في النوم كأنّي أقول لك: كم بقي من أَجَلي؟ فقلت لي بيدك: هكذا، وأومأ إلى خمسة، وقد شغل ذلك قلبي. فقال عليه السلام: «**إنّك سألتني عن شيء لا يعلمه إلاّ الله عز وجلّ، وهي خمسةٌ تفرّد الله بها ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا**

فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

٤ـ وكذلك بيّن الأئمة عليهم السلام أنّ الدّين لا يُؤخذ من خلال المنامات، سواء أكانت على سبيل بيان حكم شرعيّ أو الأمر بفعل شيء أو تَرْك شيء. ونموذج ذلك ما رُوِي مِن أنّ تشريع الأذان على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان من خلال رؤيا رآها أبيّ بن كعب. ولذا قال العلامة المجلسي: (قد ورد بأسانيد صحيحة عن الصادق عليه السلام في حديث الأذان «**أنّ دين الله تبارك وتعالى أعزّ من أن يُرى في النوم**».

جواب العلامة الحلّي

وسأل السيدُ مهنّا بن سنان العلامةَ الحلي وهو من أعلام القرن السابع الهجري: (ما يقول سيّدنا فيمن رأى في منامه رسول الله صلى الله عليه وآله أو بعض الأئمة عليهم السلام وهو يأمره بشيء وينهاه عن شيء؟ هل يجب عليه امتثال ما أمره به أو اجتناب ما نهاه عنه أم لا يجب ذلك؟ مع ما صحّ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: **مَنْ رآني في منامه فقد رآني فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بي**، وغير ذلك من الأحاديث. وما قولكم لو كان ما أمر به أو نهى عنه على خلاف ما في أيدي الناس من ظاهر الشريعة؟ هل بين الحالَيْن فرق أم لا؟ أَفْتِنا في ذلك مبيّناً، جعل الله كلّ صعب عليك هيّناً).

فأجاب العلامة: (أمّا ما يخالف الظاهر فلا ينبغي المصير إليه، وأمّا ما يوافق الظاهر فالأَوْلى المتابعة من غير وجوب، لأنّ رؤيته(ص) لا تعطي وجوب الاتّباع في المنام).

❁ ❁ ❁

المحتويات

المقدّمة ٥
الانقلاب المفاجئ ! ٧
العمل التطوّعي ١٠
هل الدِّين أساس الحروب بين الناس؟ ١٣
هل يتحوّل الناس إلى Zombies ١٦
علاقة الأخلاق بالفقه الإسلامي ١٩
قِفوهم.. إنّهم متطرّفون ٢٤
عرائس المخدِّرات ٢٧
إعقلها وتوكّل ٣٠
الوسواس ٣٤
طلّقني !! ٣٨
هواجس العقاب الإلهي ٤٢
صواريخ الشيخ شلتوت ٤٦
التأثير السياسيّ على الإصلاح الدينيّ ٤٩
النموذج السَّبئيّ ٥٣
الدين والمقدّس ٥٧

داروين بين ضلع آدم وطينته ٦١
الفجور في الخصومة (١) ٦٥
الفجور في الخصومة (٢) ٦٩
غيِّر حياتك إلى الأحسن ٧٢
يا ليتني.. يابانيّ!! ٦٧
المعجزة والكرامة ٨١
وادي العِظام ٨٦
سُكْرُ الشباب ٩٠
الأحلام والرؤى (١) ٩٣
الأحلام والرؤى (٢) ٩٨

❀ ❀ ❀



علي حسن غلوم علي

بطاقة تعريف

- المولد: 1965 / الكويت.
- التحق بالحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة عام 1983 إلى 1991.
- والتحق بموازاة ذلك بالجامعة الإسلامية المفتوحة (دانشكاه آزاد إسلامي) تخصص أدب إنجليزي.
- حاصل على عدة شهادات في مجال الحاسب الآلي.
- أكثر من 40 مصنفاً في الأبواب المختلفة، من بينها (مفاهيم حركية من وحي القرآن في مجلدين ـ لا فتى إلا علي ـ الدرة الثمينة في أخبار مكة والمدينة ـ سلسلة حدائق الإيمان وبساتين الإيمان وهي 9 كتب دراسية في مادة التربية الإسلامية ـ محطات في الفكر والسياسة والأدب ـ منتقيات في 3 كتب ـ صلاة الجمعة ـ أحكام المريض والمصاب ـ رسالة المسجد).
- 14 برنامج حاسب آلي.
- إصدار أسبوعي لصفحة دينية متخصصة بعنوان منتقى الجمان تصدر في الكويت في جريدة الوطن منذ أكثر من 3 سنوات.
- 16 حلقة رسوم متحركة كرتونية تربوية للأطفال بعنوان مغامرات عجيب.
- عدة تمثيليات إذاعية وتسجيلات صوتية ومرئية موجهة للأطفال والشباب والمتزوجين بطريقة مميزة.
- تأسيس وإدارة دورات دراسات صيفية منذ عام 1991 ـ 2010
- المشاركة في عدة مؤتمرات عقدت في الكويت ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة.
- حالياً إمام جمعة وجماعة في مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
- المشرف الديني على حملة التوحيد الكويتية للحج منذ موسم 1413 ـ 1992 وحتى الآن.
- عضو هيئة أمناء مؤسسات المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله.

رسول الله يجمعنا
جمعية المبرات الخيرية